خضير ميـــري



أيام الـجنون والعسل

الحرب على مستشفى المجانين

تقديم: صفاء سالم اسكندر

شهادة توثيقية: د. باهر سامي بطي

سطور
للنشر والتوزيع

أيام الجنون والعسل

الحرب على مستشفى المجانين

خضير ميري

تقديم: صفاء سالم اسكندر

شهادة توثيقية: د. باهر سامي بطي

أيام الجنون والعسل
الحرب على مستشفى المجانين

خضير ميــري

تقديم: صفاء سالم اسكندر

شهادة توثيقية: د. باهر سامي بطي

لوحة الغلاف للفنان: وسام مناحي

الطبعة الأولى- سنة 2022

ISBN: 978-9922-628-51-6

سطور للنشر والتوزيع

دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد شارع المتنبي مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07700492567 - 07711002790
Email: bal_alame@yahoo.com

SUMER
Printing, Publishing & Distribution
LUXEMBOURG - 2-c Crouthemerstroos - L-3334 HELLANGE
+352 671531017

خضير ميـري

أيام الجنون والعسل

الحرب على مستشفى المجانين

تقديم: صفاء سالم اسكندر

شهادة توثيقية: د. باهر سامي بطي

سطور
للنشر والتوزيع

الاهداء

إلى الدكتور باهر سامي بطي..... حتماً
والسيدة هيفاء سلمان
بامتنان خاص

مـا كان عليَّ أن أتأخر كل هذا الوقت لإعداد تقريري بخصوص تلك الأيام القاتمة التي قضيتها هناك في مستشفى (الرشاد) للأمراض النفسية والعقلية خلال أيام العدوان الأمريكي على بلدي وشعبي في العراق.

ولولا أنني كنت اشمئز من عودة الذاكرة إلى رماد الجنون، وكنت أفضّـل أن يكـون الجنون صامتاً والعقل وحده، وهـو الثرثار الكبير، يثرثر، إلا أنني ما أن عدت ذات يوم بعد مضي ما يقارب سبع سنوات إلى هناك حتى فتحت ذاكرتي الضوء ولحست مشاعري المكان.

مدخل المستشـفى الصحراوي الكئيـب، إدارة العيادة الخارجية، الشـوارع الطويلة الملتحية بالأشـجار، مرسم اللقالق الخشبية ومخزن اللوحات المترية في الجانب الأيمن من المستشفى.

وفي الجانـب الأيـسر تقبـع الردهـات الحديدية المعبـأة بالمجانين، والأسرّة المتهرِّئـة والبوابـات الحديدية وماسـورة الشرطي الأسـمر الكئيـب، ثـم دخلـت إلى مكتـب المدير المفـوض للمستشـفى ووقع بصري في أعلى الحائط على لوحة زيتية كنت قد رسمتها هناك.

وهي موقَّعة باسـمي ومؤرخة (١- ٩- ١٩٩٠) وما زلت أتذكر محتواها، هناك أفعى طويلة، ضخمة ولها رأس مدبب علامة الكوبرا، وهنـاك رجـل ملتحٍ بمعطف أسـود وجنـون آخر مضاعـف باللون والشكل والحركة، سحابة هوجاء من التضليل القاتم المقيت.

قفـز في ذهنـي جنـون- أسـود وآخـر أبيـض، جنـون ووعكـة

وكبريـاء.... وسـنقول بحركة مقاتل من النـوع الذهني والمجري إن الجنون الأسـود هو الذي يرتدي زيًّا أمريكيًّا وماسـورة بندقية وقبعة ضيقة ويطير على بطة من حديد ويقرع الطبول على الرؤوس.

وينتـج الموتـى والأشـلاء والدخـان والمـآسي ويـزرع الغياب في الأمكنـة، وإن الجنون الأبيض هو ذهاب العقل قليـلاً خارج جدار الحياة ليصرخ عالياً:

(أخذت من المجنون كل ما ينقصني من الحرية).

كانـت هذه كلمة الجنون الأبيض، بياضه الناصع، تجربته ومعناه، وهي التجربة التي ينهش بها العقل من نفسه، من خلاياه، من دمائه، من أشلائه الغضة الساخنة ليبصق على الحدود اللامعة الكئيبة.

حدود الجسـد، حـدود المكان، حـدود الكلام، حـدود الذهاب، وحـدود الفكر.... أي معنى مضاعـف لأي (حد) لنا أن نتصوره أو نحياه أو نسـعى إليه. إلا أنه في النهاية.... جنون مسـالم، طيّع، بسيط ولا يؤلم غير صاحبه....

إنـه (جنون) يرتدي نفسـه ولا يرتدي دولاً، ولا يسـمح بابتلاع حضـارات، وإذا كان المجنـون الأبيـض مدمنـاً عـلى السـجائر، فإنّ المجنون الأسود مدمن على التدخين بالأسلحة والطائرات والبذلات العسكرية وصفارات الإنذار.

وإذا كان المجنون الأسـود يفضل أن تكون الشجاعة هي العيش في الخطـر، فـإن المجنـون الأبيـض هـو الذي يؤمـن بأن الجنـون هو

الشجاعة، إذا كانت الحرية في خطر. كنت أعرف أن الجنون الأسود هو الذي جاء متأخراً ليكون متطفلاً على الجنون الأبيض الهادئ السعيد.

إلا أن الجنون الأبيض ظل متخلفاً ونائماً في حدود مصلحته بين علب الدواء والأكل واللهاث والصراخ والنوم، لقد تخلّف المجنون الأبيض كثيراً، وأصبح حفنةٌ من الأطباء المتدربين يعبثون به ويحبسونه عن الأنظار.

بينما انطلق الجنون عالياً ليحيط بالكراسي النظيفة والمؤسسات الرسمية ودكات الأكتاف، أصبحت له وظائف رسمية ومراسيم وصالات لامعة وحرس وجنود ودفاعات جوية.

حتى أخذ يشن الحروب على أي جنون آخر دون أي تحسُّب أو تردد. هذا ما كان عليه الحال في لعبة الجنون وألوانه وأشكاله وقدرته العالية على الحضور والغياب، الدفاع والهجوم، البقاء والعدم.....

وكان العدم هو الذي خلع نعليه وأخذ يهرول في ردهات المستشفى في تلك الدار، التي تقبع في مساحة نائية في حدود بلدية- بغداد- هناك تلّة ترابية تقبع خلفها مقابر الأطفال ومقابر السيارات والأزبال ومعامل الطابوق.

وقبالتها تماماً يقع مبنى المستشفى في سوره الإخطبوطي، وكان على الطيّار الأمريكي الممثل الشرعي للجنون الأسود أن يقطع المسافة بدقة، وأن يؤشر على خريطته الإلكترونية، المسافة الفاصلة

بين التلّة الترابية وسياج المستشفى في ليلة ٩- ٢- ١٩٩١.

وينفذ صاروخه باتجاه عدوه الأبدي (المجنون الأبيض الهادئ السعيد) لم يقتل أحداً.. إلا أن المكان قد تم هجره، وبدأ العد التنازلي للبقاء على قيد الحياة بلا طعام، بلا ماء، بلا دواء، بلا... بلا.... بلا...!.

أتذكر الومضة التي تحوَّلت إلى نجمة، ثم أصبحت نيزكاً، ثم انفجاراً ورعباً وجحيماً، بمقدورنا أن ندرك... أن المجنون لا يخاف، إنه لا يعرف للموت معنى، إلا أن هذا لا يعني أن المجنون لا يستشعر الخطر أو لا يؤدي رد فعل إزاءه.

كان الدكتور المقيم آنذاك هو الدكتور باهر سامي بطي، شاب قصير القامة يرتدي نظارات طبية دقيقة وله مشية محارب.... كان الدكتور باهر يدرك حينها بلا شك أن النهاية أصبحت أكيدة.

هذا الموت الساكن هنا، هو موت لا مزحة فيه، ليس ثمة أي أمل بعد، طالما أن العقل الأمريكي قد أخذ يلعق هذا الجانب الآخر من العالم، وأخذ يقشر البصل في غرفة القيادة- في طائرة تفوح منها دائماً رائحة الكحول والجنس وعصابة الكاوبوي.

ما من أحد قادر على أن يدرك أي سبب معقول لحصار الجنون، لم تتردد السيدة (هيفاء) سكرتيرة إدارة المستشفى من نعت الطيار اللعين بأنه حتماً نزيل هارب من مصحة ما، لم تتوفر له بعد فرصة الحصول على شهادة الشفاء التام.

لن نبالغ برواية حالات الموت الناجمة عن نقص الطعام والدواء... في التقرير الاجمالي المحفوظ في أرشيف إدارة المستشفى (هناك ٤٠٠ مريض ماتوا خلال العدوان العسكري).

هناك بالطبع ضِعف هذا العدد شردوا خارج المستشفى، وقد ملئت شوارع العاصمة بالمجانين، كان الجنون الأبيض يتظاهر ضد الجنون الأسود الأعمى والمقيت، لقد تنافس المجانين على أخذ حصتهم من الموت بالشظايا والقنابل وهم يرقصون على الأرصفة وكأن شيئاً لم يكن.

في باحة المستشفى... كان الموت سريعاً ورشيقاً مليئاً بالخفة والنشاط، تكدست الجثث في غرفة مربعة محاطة بأجهزة التبريد، التي كفت عن العمل بفعل انقطاع التيار الكهربائي.

ثم سرعان ما انتفخت الأوردة لتبث هواءً فاسدا، وتورمت الجثث، وكانت هناك أكداس من الأعضاء الآدمية تنام في رحم ما يسمى مجازاً بـــ (ثلاجة الموتى)، حتى وقع انفجار مضاد لانفجار الجنون الأسود.

لقد انفجر الموتى على الأحياء، وتوحد الجسر الرهيب بين الحياة والموت، العدم والجنون، الحرية والرعب، قاءت الثلاجة البدائية طعامها البائت إلى الكلاب السائبة، التي سرعان ما تناسلت داخل حيطان المستشفى بحثاً عن الطعام.

كانت هناك كلاب لاهثة على الأرض، وأخرى تطير في

السماء تعوي على الأشباح من الآدميين، وتعض الطيور والدجاج والأشجار والأرصفة والنمل والأطفال، وتنهش الأحلام والزهور والسعادات الصغيرة المخبأة هنا وهناك.

إن الحرب ما هي إلا ثلاجة للموتى في ذاكرة البشرية، موتى وكلاب، جنون وعدم... بكاء وذكرى... ما من أحد يستطيع أن يمارس حياته بشكل طبيعي وهو يعرف حقًّا أن هناك حرباً ما في مكان ما.

كان عليَّ أن أنسى كثيراً مما حدث وأن أُسقط من ذاكرتي آلاف الصور التي اندست فيَّ وتورمت وتشققت حتى نزّت دماً وصديداً- ما أن غادرت المصحة بعد زيارتي لها منذ تلك الأيام الرهيبة.

حتى أيقنت أن الخراب الذي شهدته هنا في العام (١٩٩١) هو الدليل الفعلي على أن همجية تامة هي التي قادت أمريكا لتفعل ما فعلته... لا بأس إن الحرب تُدار بكل الأثمان، وإن الخسائر كلها جائزة في حالة وقوع الحرب.

إلَّا أن حرباً على الجنون... حربًا على مريض بريء، مسالم ومقصيٍّ بعيداً... هل هذه... حرب... بالمعنى التكنلوجي للمفهوم الأمريكي للحرب؟.

علينا أن نضع أمام العالم كله حدثين مهمين مما حدث لدينا في وقت العدوان الأمريكي هناك حادثة (ملجأ العامرية) وضرب مستشفى الرشاد للأمراض النفسية والعقلية... في ملجأ العامرية

استهدفت الطفولة ومزقت الأجساد الصغيرة، واغتيلت آخرُ نبضاتِ قلبٍ في ضمير الإنسانية.

وفي حادثة الشماعية، المنطقة التي يقع فيها مستشفى العقول. تم استكمال فاعلية الحضارة الأمريكية... قتل الطفولة وقتل المجانين، تمزيق جسد طفل والجناية العلنية بحق أناس فقدوا الصواب وحملتهم الحياة إلى مصحَّة رسمية.

ليعيشوا قليلاً مما تبقى... ما من شك... أن تقريراً عما حدث هو أمر لا بدَّ منه لمعرفة الجانب الآخر من العدوان... كان عليَّ أن أكتب تقريري باقتضاب شديد وأن أسجّل موقفاً- لا إنسانياً جديداً على تلك السيدة الهوجاء (أمريكا).

وإذا ما كان لأي كائن أية صلاحية في التضامن مع تقرير كهذا، فإنني أود أن أشكره نيابة عن كثيرين، إذا ما وضع هذا التقرير في مغلّف أسود وتمّ تقديمه إلى استعلامات البيت الأبيض الأمريكي.....

ليتسنَّى لأي رئيس جمهورية- حالياً أو في المستقبل- مطالعته والنظر فيه كلما تناول قهوة الصباح بهدوء وعقلانية:

- نسخة منه إلى البيت الأبيض الأمريكي.
- نسخة منه إلى هيئة الأمم المتحدة.
- نسخة منه إلى منظمة الصحة العالمية.

- نسخة منه إلى المنظمة الدولية للصليب الأحمر.

- نسخة منه إلى منظمة حقوق الإنسان.

- نسخة منه إلى الهيئة العامة للرفق بالمرضى النفسيين.

- نسخة منه إلى الطيّار الأمريكي كمذكرة وفاء وشكر واعتزاز!

خضير ميري

بغداد ١٩٩٨

خضير ميري
بهلول المكان وصانع الجنون

تقديم: صفاء سالم اسكندر

لا أحد يرتضي الاعتراف بأن خضير ميري أسس أدبًا للجنون في العراق. ولم يكن ذلك محض خيال، أكثر من مراعاة القدر له، في خلقه المفاجأة بكتابة نصوص مغايرة في مواضيعها ولغتها التي حاولت أن تتجاوز الواقع إلى فنتازيا حاضرة في الواقع نفسه. فالفترة التي قضاها في الشماعية، تعني تقريرًا كاملًا لا يمكن تجاوزه، لعب فيها الهامش والجنون، دورًا في تشكيل ذاكرة لم يمتلكها، في رأيي، أي كاتب عراقي قبله. ساعده ذلك في صناعة المحتوى اللغوي للجنون، ولم يكن الأمر مجرد رغبات صغيرة في عالمه، مما عرَّضه لخسارات كثيرة..

الآن أتساءل: لو كنا نمتلك سينما حقيقية، هل كانت ستترك هذه الزوايا من سيرة الزمن العراقي التسعيني، سيرة الحصار الصعبة، والهرب الحقيقي بكل ما يعاكس الواقع، والذهاب إلى مغامرات تمثل كابوسًا حقيقيًّا، يشبه لعبة لا تنتهي؟

كان ميري يتوقف عند تلك الغوايات ، لأنه رغب بأن نصدق استرساله، وإن انتماءه ليس مجرد انتماء لواقعه، بل تقصٍّ لتلك الموازاة مع العقل. وبالتأكيد الكتابة تحت تهمة الجنون لا تمثل ترفًا، واضعًا

معجمه الخاص من تجربة مفزعة، ساعده على الإيمان بها كتابات (نيتشه) و (فوكو) اللذَين زادا من حماسه، وجعلاه يرغب بالنظر عن قرب إلى الجنون، ربما هذا الافتراض بناءً على قراءاته الفلسفية، وكتبه (الفكر المشتت- تعقيب على فوكو) ١٩٩٧م و (الجنون في نيتشه) ١٩٩٩م، واستطاع نزع هذا الفتيل من الخوف في النظر إلى غياب العقل، والدخول إلى مدينة كبيرة للجنون (الشماعية) ..

كانت تهمته الأولى هي القراءة، فاستقبله مستشفى (ابن رشد)، وبعد ذلك كانت محاولة للهرب من الإعدام، كما أخبرني هو بنفسه، لحظتها كما يقول: آمنت بالموت، وانتهى. فقام بلمس كايبل/ سلك كهربائي كبير، حتى يرميه بعيدًا، مغميًا عليه أمام عدد من الذين كانوا اقتادوه بتهمة التآمر، وبعد ذلك خضع لتمثيل دور المجنون لمدة خمس ساعات متوالية، أمام لجنة أخرى، بعد كلام الطبيب الذي أعلن أنه مجنون فعلًا، بسبب فعلته هذه، وهرب في تجربة التمثيل أيضًا من عقوبة الإعدام، إلى واقع آخر، كانت له تجربته الصغيرة معه، لكنها بعد ذلك تأخذ منحى آخر، هو الذي ترك أكثر من زيجة في أكثر من مكان، ومارس التصوف عندما هرب في حرب الخليج مع عدد من الذين هربوا، واختفى في مكان للدراويش في ديالى.

**

إذا، ميري صنع من الجنون لغته الخاصة، وإن كان ثمة من يشكل على أسلوبه من حيث الناحية الفنية، لكنها ستظل فرادة له، هو الذي اكتسب تجربة فريدة ونادرة، حتى صار ظاهرة لم يعرف الوسط مثلها

من قبل، وأقصد بذلك تجربته في الكتابة أيضًا، من السؤال الفلسفي إلى السرديات عن الجنون، والكتابة عن هامش الهامش. وهذا يحسب له من باب المقارنة والمقاربة مع أبناء جيله الذين تمسكوا بالكتابة عن واقع الحرب آنذاك.

**

هل كان ميري مجنونًا فعلاً؟

هنا بالضبط يكمن الحضور الإشكالي لميري في الثقافة العراقية هو الذي خلق لنفسه معادلة، يضمن من خلالها التحرك بحرية، فالفوضى عنده إثبات للتعقل، ومصدر للمعنى.

**

لدى ميري حضور يدل على فوضويته، وهوسه بالفلسفة، ولا شك عندي أن هذه الكاريزما التي يمتلكها ميري، هي واحدة من الأشياء التي تدعم حضوره بين القرّاء الشباب، المهتمين به أكثر من جيله نفسه.

**

في المستشفى (مدينة الطب تحديدًا) كنت من أواخر الذين التقاهم ميري قبل مفارقته الحياة، وقتها قال لي: هنا قصص لا أظنها تختلف كثيرًا عن عوالم الشماعية لو شئت استخدام ذلك.

يدلني ذلك على قدرة ميري السردية في استثماره الأماكن التي تحد من الألم، وقدرته على التوسع، لكن ثمة فرقًا بين عالمين على الرغم

من أنهما في صيغة واحدة، هي المرض.

إن المجنـون يملك صبرًا لا يملكه من يصفون أنفسـهم بالتعقل، يقول ميري: (الحياة شـماعية كبيرة، لا بدَّ أن نفكر بصوت عالٍ لنرى أن كنا موجودين أو لا، لأن المرآة ليست دائمًا على حق)

**

لم أرَ أحـدًا يحتفـي بالجنـون كما خضـير ميري، حتـى وهو خارج الشـماعية، المكان الذي يتذكره على أنه المنقذ من عقوبة الموت المؤكد. وبالطبع لم يمرَّ هذا الشيء مرور الكرام في الوسط

الثقافي العراقي، حيث كان بعضهم وهم

كثر بالتأكيد، يعيبون عليه هذا التمسك بالجنون، وقد كان عارفًا

برأيهم، لكنه لم يكن مهتمًّا أبدًا، فمثل هكذا أمور لا تمثل أي

شيء لديـه، طالمـا أكّدت عـلى مثاليّته التي يعدهـا المعنى المراد من الجنون.

**

الفاصل الأول

البوصلة أم الصحراء؟

في منتصف ظهيرة القاعة حطوا رحالهم مقصيِّين عن دائرة الضوء، وها هم يخطون حكاياتهم اليتيمة ويطلون على العالم بمسامات جسد تم له عرضاً أحقية الكيان، وشاءت الأقدار أنه لا يزال محنطاً بالحياة.

بإمكاننـا أن نمـر عليهـم، أرقام عميـاء، حـالات لا مثيل لها من الجـزع، الطيـش، والتطامـن في (الإقصـاء) و (النفـي) و (التواري) ولعبـة (الـلا أحد). ولعل (حسـيب) المبجـل، أقدم (نزيـل في ردهة الفاقدين) على حق عندما عرّف نفسه قائلاً في حالة توتر شبه واع:

- سـؤال مَن أنا؟ لا معنى له إذا كان الجميع يسـأل بعضهم بعضاً مَن أنا؟.

ولا سـؤال سيكون له معنى، إذا كنّا نطلقه على صف من المجانين قـرروا أن يأكلـوا (مـرق القـازان) وأن يبصقـوا لعابهـم عـلى خبـز المستشـفى. مجازاً نعطيهم الحـق في المضغ جيـداً.... أعذارهم واهية هؤلاء الذين أمَّنوا حقوقهم بلا لوائح أو قوانين.

وانفتحت حوصلاتهم بالكلمات المتقاطعة والرنين التائب، هذه السماء التي هناك كلها عطشـى، وأية صفيحة أزبال فيها تصلح لأن تكون قمراً أو شمساً أو نجمة سقطت سهواً..

البوصلـة التـي أفلتت من يد مجنـون، والصحراء التـي حطّت في رأسـه بـلا اسـتئذان... عـاود الانتظار قطيـع الهيـاكل ذاك، والبوابة الحديدية علامة الصليب لم ترضَ بعدد الموتى الذين حشروا في قفاها، ولم تمهلهم الجدران بعد حقَّ الذوبان والتلاشي المؤمل والانسحاب.

بإمكاني أن أسجل شهادة الدكتور المقيم (باهر سامي بطي) أو أحد مسؤولي جناح (الطوارئ) أو (ردهة السجن) أو في القليل من الانطباعات المؤلمة التي تلقفتها السيدة (هيفاء) السكرتيرة الأولى في مصحة الأمراض العقلية والنفسية.

أيّاً كان سيقول، إن حرباً على المجانين لا بدَّ أن تكون حرباً متشابهة، وحسبما يقال في مثل هذه المواقف، فإن (العقل) كلمة جوفاء إذا كان الهرب من الموت يعني أن نموت، ولنا كل الحق في تذكّر ما حدث.

ولا أريد أن أسجله بتفاصيل لا تطاق، وليس من الحذاقة أن نردد مع الآخرين، إن هذا يستحق الكتابة وذاك لا.... الأمر يبدو ذاتيًّا، والكتابة ليست أكثر من (حدث) ما، يوفر لنا العالم فرصة الشهادة عليه، حتى إخفائه، التآمر عليه وشطبه من ظهر الواقع.

فقتل حزمة من المجانين عَرَضاً لا أعتقد أنها بحاجة إلى رأي أدبي، إلا أن شيئاً ما لا بدَّ أن يقال بحق هؤلاء الذين رحلوا.... بإرادة هوجاء لحضارتنا البائسة، هؤلاء الذين حشروا في قاعات الاستشفاء لينتهوا لا على أسرّة منازلهم الدافئة، بل في (ثلاجة الموتى).

وبغض النظر عن الدلالات الإنسانية (العميقة) التي توفرها لنا ميتة طازجة لمجنونٍ ما، ذلك الطفل الكبير، فإنّ يوميات عصيبة مرّت هناك، مفارقات بائسة، وأخرى يساندها الضحك، حتى مطر الدموع أرجوحة هزازة تمارس لهوها الصامت بين البوصلة التي كلّف بها مجنونان.

أحدهما فقط يحمل في جيب سرواله العتيق ورقة اكتساب الشفاء التام، والآخر الذي هو (هنا) و (هنا) بإسراف، هو الذي حمّل نفسه عناء أن يكون هدفاً لكل ضياع أو لأي قرار مريح ومكتوب على الآلة الكاتبة.

يعطيه حق الألم، وهو حق لا غبار عليه، حتى لا يؤكل نصيبه من حقٍّ كهذا، قرّر مع نفسه، أن لا يبالي، وأن يسحب عدّته الشخصية، وملفه المَرَضي وشؤونه البورجوازية، التي تؤرقه غالباً، ليُلقي بها في حوزة أكثر المجانين مهارةً... وأكثرهم حرية، ذاك الذي حشر موافقاً في سرير طائرة أمريكية، وأخذ يُقشر البصل في غرفة القيادة!.

الفاصل الثاني

حساء آخر النهار
أو فصل في الضفادع

سأل أحدهم، وهو يهمُّ بأن يخبِّئ ضفدعة تحت أبطه:

- حسيب ما هو المنزل؟

أجاب حسيب بلا أسنان:

- إنه باب يكون لك حق السؤال وراءه: مَن الطارق؟

وكان ذلك قد قيل، في لحظة إبصار مؤخرة إحدى الطائرات وهي تنفث دخاناً، وهمَّ أحدهم أن يقسم على (كلام الله) بأنه رأى زوجته وهي تقلي البطاطا الطازجة فوق الغيوم. ولا أدري ماذا حلّ بالقطيع بأكمله من الآخرين؟، ولماذا اتفقوا على القَسَم ذاته؟....

ومنذ تلك اللحظة أخذوا يتوقعون مجيء وجبات الطعام من البطاطا المقلية، والسَّلَطة المشكَّلة، والدولما الحمراء المفلوقة وقطعة الكبد المحمَّرة، وشيءٍ من مرق أسود وآخر مخصص للباميا مع قطعٍ من الخبز الأبيض ورأسٍ من البصل الكبير، له فروة شعر على رأسه المدلل.

وصدّقت أنا الآخر، وأخذت أنتظر بدَوري قطعة من الكيك الساخن وقدحاً من الشاي يَمُنُّ عليَّ بهما أحد الذين يطبقون السماء على الأرض، الوقت على أشده، يعني أن ثمة من يفكر بسَلَطة (المعدة)، وقد تآمر الطهاة على إدارة المستشفى، وفرّوا هاربين.

واخترعت لنا الممرضة (نسرين) أسطورة حساءِ آخر النهار، وبقي حسيب مصرًّا على الضفادع، وبعد أن مضغ وبصق حرّكت فعلته هذه المشاعر المنزلية الآمنة، ولعبت الفكوك دَورها المعتاد.

وطارت مجموعة من عصافير العقول أخذت تلقِّن حسيبًا درساً في (الاشتراكية)، بأن ضفدعة واحدة تكفي للجميع، وما أن مرق فارًا من شهوة الآخرين، حتى سألته الممرضة (نسرين):

- مـاذا هنـاك.. حسـيب أجبني بسرعـة، وإلا جعلت لك سـتَّ كيّات كهربائية آخر الأسبوع.

- والله لا ذنب لي... هل من الأفضل انتظار زوجة أحدهم، وهي تقلي البطاطا على الغيوم،

سـبحان الله، بطاطا في الغيوم وضفادع في بركة ردهتنا الآمنة. ثم مَن قال إنها تجيد صنع

البطاطا...

يـا للعوق، لم تبتسـم الممرضة (نسرين) وبدت ملاحظة حسـيب لا تخلـو من علمية، وللحظة أبصرت الدكتور (باهر) يتجول سـاهماً متدثراً بمريلة بيضاء مدعوكة بعلامة الصنع المحلي.

وبدا كأن شيئاً ما.... سينفجر، ما مِن أحد يعرف.... أيّ الحلول أكثر جديّة، الطهو على الغيوم، أم اشـتراكية حسيب العلمية؟ الظاهر للعيان، أن نسرين وحدها هي التي تعرف أخبار الطهاة!.

الفاصل الثالث

طيران مريلة بيضاء

جهاز الراديو أعدَّ مسبقاً لمذيع شاب رصين يخبرنا عن عدد الموتى الذيـن صنعناهم، حتى لا يكـون هناك عالَم، حطّم أحدهم الراديو ذا البطاريات الكبيرة، وصرخ عالياً:

- انتهت الحرب أيها الأبطال.

ولكي لا يكون هناك موتى بعد إطفاء الضوء ونام. إلا أن الوقت لا يـزال عـصراً، ولم يكـن ثمـة رغيف خبـز واحد، تـبرع بمجهوده الحربي ليمرق ظله من هنا باستثناء السكرتيرة (هيفاء)، التي كانت تمُـرُّ دؤوبـة ممتلئـة كنحلة بيضاء، وعسلية أخذت مساحة كبيرة من نصف ذاكرات نزلاء هذا المكان.

أمـا النصـف الآخر، ففي مكان أجهله حقًّا. مـا أن اقتربت مني، حتى سبقتها رائحة (ندى) وحطّت معابثة مخيلتي الجائعة (تصوّر أن أنوثتي شاخت كوجه قرد)، وتمنيت أن تغرب عني.

ثمـة حشرات متآخيـة تتجول بهـدوء أعصاب عـلى حافة لباسي الداخلي، وسيبدأ نزيف الشكوى هذا، يحوّل الشفاه الطريّة إلى نهر مـن أمواج الكلام. أخـذتُ بحك ذراعَي الكـرسي وأتظاهر بتعديل حزام سروالي، الذي لا يخلو من شهامة هو الآخر.

والتقطت هيفاء بأصابع (قرد) مصطبة خشبية متواضعة لها لون تنور طيني مهمل وعدلت من وضع الدبوس الخشبي علامة الوردة، وأخفـت صرَّتَي نهديهـا المزمومين بذراعيها، وعـاودت تحريك عقب حذائها.

ومالـت إلى الأمـام قليلاً بانحناء سـيدة مكتب لتتشـبث بالفراغ القليـل الملقـى بيننا. علامـات الإرهاق كانـت مبثوثة أكثـر في زوايا الشفتين.

عشرون سنة دفاعاً عن الجنون، تصوّر هل بمقدورك أن تعود إلى منزلـك اليومـي براحة بال وأنت تشـاهد في كل لحظة أشـباه آدميين يقصُّون أطراف رؤوسهم بموسى للحلاقة.

إنها بطولة، بل أسطورة أن تحافظ على الفرق بين مكنسة كهربائية وشـجرة يوكالوبتـوس، بين قاطعـة أوراق وقطعة مـن الجِبن بعد أن حصلـت عـلى التعيين هنـا، لم أعد أفكـر بالحياة إلا عـلى أن لا نكون كهؤلاء وفكرت قليلاً:

(الحياة هي أن لا نكون كهؤلاء.... جملة صحية).

والآن، مـا معنى الإنسـانية، إذن وهم يوجهـون الحصار والموت على مستشفى المجانين. ثم بالغت بمشاعرها الأمومية، وعدَّلت ياقة قميصي المضحك، ووعدتني بأن أي طعام سـتحصل عليه هذه لليلة سيكون لي، ولي وحدي....

باعدت قليلاً ما بين ساقيها، وقالت:

- (لا تهتم .. لا شيء مهم .. إنها عاصفة مؤقتة!).

كلام اعتدت عليه، والحرب دائماً متشـابهة، ماذا يعني الموت أكثر مـن ضحكة بلا صوت أو رغبة للاغتسـال بقطعة من الصابون، ولا أحـد هنا على الاطـلاق يعرف أو يجزم بأنه يعـرف ما معنى أن تموت

وأنـت تـرى إذا ما كان الموت لا يعني أكثر من ذلك الجهاز المربع ذي الإطار الخشبي.

الـذي يُخـرج لسـانه الكهربائـي مـع قليـل مـن الملـح وجلافتي الصدغين، ثم يعطي العقل اسـتراحة قصيرة، وإذا ما اجتهد أحدهم أكثـر فـإنّ المـوت، ربـما، كان يعنـي أيضاً سـاعة بيضاء لهـا قلادتان باردتان تحكان أسفل الأذنين.

عمومـاً إنها على حـق... لن يصمد إحدى وعشرين سـنة مدافعاً عـن الجنون، ثـم سرعان ما ينافسـه جنـونٌ آخر لا مشـفى معين له، وليـس بالإمكان علاجه بالجهاز الكهربائي ذي الجلافتين ..إنها محقة تماماً...

لا بدَّ من اتقان مهمة الطبيب... ولا بدَّ من، وهذا مطلب شرعي ولا غبـار عليـه... وهـو ليس بحاجـة إلى براءة اخـتراع ليكون ملكاً مشاعاً للجميع.

بعد أن جاءنا صوت من نافذة الردهة:

- (المدير يريدك فوراً).

صـوت زنبوري بلا نـبرات، لقد تركت خلفهـا قطعة من الورق النشّـاف عليهـا آثار أحمر الشـفاه، ومـا أن غادرتني حتـى قررتُ أن آخـذ كلامـي مأخذ الجد، وأبـدأ معركتي أولاً مع الحـشرات الأليفة المعسـكرة عند الحـدود الواهية لحافة لباسي الداخلي، الذي اسـتحال إلى ساحة عمليات.

وما أن خلعت سروالي حتى دخل عليَّ أحدهم وهو يحمل (إبريق) المرحاض ليخبرني، كيف أنهم لا يسـمحون له بدخول الحمّام الخاص بالعاملين، وأردت أن أبدأ بمعركتي هناك وراء السـواتر الخلفية لقفا الحمامات الكالحة اللون.

لـولا أن خطـرت ببالي فكرة غريبـة مؤدَّاها... أن مـا لم تخبرني به (هيفاء)، هو كيف أنها كانت هنا؟. حقًّا عشرون سنة ولم تخض حرباً واحدة كالحرب السرية التي ابتليت بها...

سـؤال سخيف... وسخيف جداً... لقد قدِّر لي أن ألمس وأسمع وأحـس بكافة حواسي معنىً آخر لحياة منتصف الضوء، حياة أخرى لا تقـل شـأناً عن حيـاة مركز العالم، مركـز الوجود، حيـاة بلا قحفة رأس.

ولا داعـي لكثـير من الخلايا في تلافيف الدمـاغ، لكي نصدّق أن مريلة بيضاء، طارت وصارت غيمة، وصارت نجمة، ثم تحوَّلت إلى بطة حديدية... أسراب من المريلات البيضاء تتطاير هنا وهناك.

رأيت مريلة الدكتور (باهر سـامي بطي)، وهي تغطي ظهر غيمة جزعة كانت تلوِّح لي من بعيد وتشير إليَّ بابتسامة رخوة، ثم قرضت لي إحدى عينيها ووعدتني وعداً غامضاً عن لا شيء.

تُـرى لماذا ذكرت هيفاء شـيئاً ما عن القـردة؟. صحيح أن المخيلة لا تشيخ.

الفاصل الرابع

أسراب البط التي استحالت: إلى شموس صغيرة

لقـد أدمن معظم الأحياء من ذوي العاهات (الدماغية) على حياة شـبه منتهية وخالية مـن الدفاع والكذب والتبريـر، ولم يمنع هذا من التضامن المؤقت، على أن شيئاً أفضل من لا شيء...

مجنـونٌ حيٌّ خيرٌ من عاقلٍ ميِّتٍ، وهناك مَن كان قادماً على صهوة قتل لا شعوري:

جريمة صورية

اغتصاب بعوضة

تغرير بغلام

جرح طوطم

سوء فهم الأحباء

رشوة (محام)

التلصص من ثقب الحمّام

الثأر الفعلي من الأب

التغرير بالأخت الصغيرة

وربما كذلك التبول واقفاً في

مكان عام

مـن المحرمـات شـتى، وقـلادات ذنـوب، مصائب وكـوارث لا حـصر لها، تحدث بين جدران سـقف الحيـاة... إلا أن هذا لا يبرر أن

لا يكـون ثمـة (قزان) و (مرق بائت) وخبز بلـون الحجارة وخروف اسمه (المعدة).

الذنوب على أشـدها لا تبرر جوع مجنون، وانتشر ثلاثة أو لعلهم أربعة، قرب الجدار الواقي لسلّم السطح، وأخذوا يشكِّلون مقعداً حرًّا طليقاً، لتجاوز ثلاث دمى لها عيون سود داكنة.

وعلى أجسادها ندوب من الجرب الموزع على الرقبة وتحت الأبط ودمامـل بلون الحصى، وهـم يضيعون الوقت بالقبـض على (القمل المسلي بإسراف).

ولملم أحدهم أزياء لباسه الإمبراطوري وعدّل من وضع كلابتين أشـبه بـــ (حديدة) التنور أو بقايـا محراث جمرات الخبز، وأخذ يلعق (كف) زميله الذي طار صوابه وأقعده بضربة من قدمه الثقيلة.

أقعد الآخر على (عظمة مؤخرته) ورفع رأسـه إلى الأعلى حتى مـرّت أسراب كثيفة من البط فوق رؤوسـنا، أعرف أن البط يطلق حروفاً متشابهة ومتكررة تؤديها أصوات (حنجرية) من لحمٍ ودم.

البـط هـذه المرّة، ضـاج جداً ولـه هدير، ويبـدو أنه يـأكل كثيراً، فقد اسـتطالت رقبته وبدت أكثر سـمنة، كما أن أجنحته تصلبت أكثر وغدت ثقيلة ولا تعينه على الطيران برشـاقة، حتى عيونه الدامعة قد اتسعت هي الأخرى.

وتحوَّلـت إلى عيـون مسـتطيلة الشـكل جانبية ذات نظـرة مركزة وبـاردة، لا تخلـو من فضول ثابـت، بإمكاننـا التطلّع بعمـق، بحرية

رعناء إلى البط، الذي يَمُرُّ أسراباً وعيونه المتَّسعة تلفظ ناراً:

- بط ونار.

- نار وبط.

و (مرقت البقرات الملوَّنة على سور منزلنا).

البقرة الطائرة أم البطة ذات اللهب؟ الكسول ذاك، الموارب لحركة الضوء قرب الحمّامات الخلفية، هو الذي أطلق بيانه العسكري على صفٍّ من الطيور الغريبة، كان قد اختار سماء (بغداد) منقلباً له.

هو الذي قال ونطق أخيراً، وصوّب وجهات نظرنا بخصوص الفوضى، التي حدثت فوق رؤوسنا، ونزل البيض المسلوق على دشداشة الكسول (ذاك) أبله المكان وتبعناه مسرورين إلى (حانوت الردهة) ونحن نثرثر:

- إنهم لا يعرفون الفرق بين البطة والبقرة، ولذا فإنّ عليهم قتل المجانين أولئك الذين يعرفون

قبل غيرهم، أن أي شيء يطير في السماء عالياً لا بدَّ أن يكون سرباً من البط، وإذا ما أطلق

ذلك السرب المدلل شيئاً من النار، فقد استحال إلى شموس صغيرة تنير لصغارها الطريق

وتساعدهم على السقوط بسلام.

وقال الكسول ذاك، أبله المكان المخوّل بالتصريحات، أيضاً:

- سيطلقون المزيد من البط فوق رؤوسنا غداً حتى نتعلم الطيران، فنكون سبّاقين إلى أخذ

سمائنا منهم، فليس لهم الحق في أن يحلّقوا فيها.

الفاصل الخامس

صندوق خشبي صغير سيّئ السمعة

أسـفل جـدار كونكريتي، شـاهق الارتفـاع لا تفكر نملـة حاذقة عـلى الإطلاق باتخاذه مهرَباً، قرب كومة مـن نفايات الصالة المركزية المخصصة دارًا للأطباء، وهناك كتابة على قطعة طابوق تقول:

- احلمْ كثيراً، يكُن لك سرير في مصحة راقية.

هذا هو عزاء حسـيب، الحلم الجيد، المعافى، الذي حوَّله إلى كومة مـن الهراء (أذكر أول مرة وصلت بها إلى هنا، كانت تلك مزحة ثقيلة اتخـذت بحقي). لقد فارقني الهدوء ذات ظهيرة، في منزلنا السـياحي في (السليمانية).

ولم يكـن الأمـر يعنـي أكثر مـن ثقب خفـي في جـدار المرحاض المجـاور لمنزلنا!؟. والمزحة بدت ثقيلة جدًّا، وغير مرغوب بها عندما جوبهت بسؤال عقلاني، رزين مفاده:

تفاحة في اليد أم تفاحتان؟.

ثم دوّنوا لي ورقـة صغيرة عليها أرقام هواتف كثيرة، وثمة مفردة ثعبانيـة طويلة ومعقدة قرأتها في حينها وأنـا أجيد الانكليزية ما زلت أتذكرها جيداً:

Hallucinations

وهـزت رأسي موافقـاً، وبعد ذلك لم يعد هنـاك شيء يضاف في كيس الأزبال غيري أنا..... (حسيب طلال هاشم). إلا أنه للتو أخذ يدخـل نزالـه التاريخي ويصحو قليلاً على صـوت صراخ البط وأزيز الهواء.

وتطاير أعقاب السجائر من أفواه العمالقة الذين يحبون المنازلة من بعيد. صرخت البوابة الحديدية، وجاء الصوت الإبليسي محمّلاً بالزعيق علامة الرعب وإشاعات عديدة، متكاثرة تقول، إنّ السماء أعلنت احتجاجها على البقاء معلّقة.

وقد آن الأوان لأن تحتضن البشر. هرول الدكتور (باهر) إلى ردهة الفاقدين، دزينة من المرضى أعلنت قلوبها عن التوقف، هزال بشري وبؤس لا يحتمل لعبة الحرب الجادة أكثر مما ينبغي.

هنا وهنا يصبح الهواء ميكروبياً. والدموع غير كافية تماماً لاستدرار رحمة الخطر. الحركات الخرقاء، والدفاعات الواهية (فرس مُستفزة) وأشباح أشياء، سحب من الدخان، وأصوات تكسّر النوافذ، وأشباح في الرؤوس، عيون صغيرة لجرذان مرتبكة.

صوندات الحريق لا نفع فيها، ثم مجمع النفايات الذي شوهدت فيه قطعة من جناح طائرة، وقد استحالت إلى فحمة من حديد أشبه بقطعة نايلون محترق، ولها هيأة صخرة في فرن طابوق.

سقط القناع العقلي وألقى بنفسه في قاع (القازان) واستحالت المشاعر البشرية إلى ذكرى. وما أن فرزت قليلاً من ضغط أفكاري المشوشة حتى وقع نظري على مجموعة من النزلاء وهم يلتقطون قطعاً صغيرة من الشظايا الساخنة، محمَّرة قليلاً، بشراهة لا مثيل لها.

تحوَّلت الشظايا إلى سجائر مفردة فاخرة، وأعلنت حينها قيلولة الحرب بهدوء، وما عاد أمامَنا سوى التصديق بامتنان تام بقيامة اللا

أحد، حتى يتسنى لنا أخذ الوقت الكافي لهضم ما وقع عليه حظنا من الحرب.

عثرت على صندوق (الكي الكهربائي) مهشَّماً وملقى في الباحة الأمامية لمدخل الزوار. و(فرّاش) مدير إدارة المستشفى، بوجهه الريفي علامة النخيل، يحمل أضابير كثيرة، قذرة جداً ومربوطة بسلك كهربائي مطواع.

بدت عليه إمارات الدهشة وهو يحمل الأضابير، وما أن أصبحت بمواجهته تماماً حتى قال لي:

- آمل أن يخرجوهم جميعاً من هذا الجحيم.

أدرت ظهري... وخطوت متكاسلاً وأنا أفكر. بصندوقنا الصغير السيِّئ السمعة. ولم أكن أعرف أي جحيم يعنيه ذلك الجنوبي المسالم الذي يحمل أضابير كثيرة.

الفاصل السادس

كلّابات بلون عظام المتحف

كلّما تضاعف رقص ملاعق الصحون الطائرة في سماء بلادنا تجرد الجنون عن ذاته، وشمّر عن ساعديه، وأخذ يحاجج بمنطق قديم يقول:

- ما مِن أحد له الحق أن يكون عاقلاً أكثر من غيره.

هناك فجوات في العالم وأسئلة ومغالطات لا حصر لها... إذن اللا عقلاني مبدئيًّا هو الذي يحرّك ساقَي نملة بذات الأهمية التي نحرّك بها أقدامنا. بمرور الوقت رفضت الممرضة (نسرين) كل إشارات الإحراج معنا.

وأصبح بمقدورنا التورط برؤية ثنية لحم معقوفة، وأخرى متورمة بعض الشيء محمولة بخيوط رقيقة، واهية، مشدودة إلى أعلى الكتفين، وأحياناً تجويف غائر في العمق قليلاً ينتهي بظلام مسقف من الأعلى بقماشة مبسوطة قليلاً ولها كرماشات تمشط فوق الركبتين.

وإذا ما سقط مقص الجراحة الأبيض جدًّا من شدّة الشراسة، فإن تدلّياً خرافيًّا وتهدلاً رخويًّا يكون قد سمح لنفسه بالبروز من الحافّات المثقبة لسياج الصدر وتؤججه مسكة خفيفة من كفيها لتعود الأمور إلى الزوال والنهار إلى عتمة مرّة أخرى.

وها نحن نشاهد (إرادة حديدية) لأحد ما استطاع أن يغتال وريد مثانته الوحيد في حمّام منفرد لا شيء أكثر فزعاً من دم أحمر يسيل كماء النهر، ولا شيء أكثر قسوة من رؤية شاب وسيم نالته جرثومة الجنون وتركته أشلاءً.

الصمت ذاته والصدى لا يعوّل عليه كثيراً في ساعات ما بعد منتصف الليل، استثناءات صغيرة ومتفرقة تحدث بين حين وآخر. صوت حشرات غير آمنة، ماسورات بندقية، رفيف نجمة، صنبور ماء عنيد ومشاكس وشخير أقرب إلى الخناق.

وراديو (صوت أمريكا) يحدّث جرذاً هارباً عن خسائر فادحة في الرأي العام / الأرواح والمعدات / أحذية عسكرية في ساحة العمليات / سلامات يا ولدي / كبرياء نخلة / وهذا الجمع القصي الملازِم لظلّه الجائع.

حسيب يفتتح المأتم قائلاً:

- لماذا لم يخبرني أحد بأنها مسألة وطن؟.

- وما هو الوطن يا حسيب؟.

- إنني أعرف منذ القِدَم... ما هو الوطن؟.

(الوطن هو أن تكون لك أم واحدة لملايين الأبناء).

ويختفي حسيب مع آخر كلمة قالها، يختفي بليلٍ مصنوع من حرب ليس هنا على وجه التحديد مكانها، الضوء الأخير الذي تركه لنا ليل هذه الليلة حتّم علينا القرفصاء، والتدثر حذراً حتّم علينا أن نفكر بأن هناك من (يستثني) الموتى ويحكم من يبقى لغدٍ أو يموت البارحة.

الساعات القصية التي نلتها عبثاً درّبت حواسي على الفراغ وغذت آخرين مؤونة الحشاش. وسوف أعترض على القدر نفسه،

إذا حتّم على حشرة أن تأكل نفسها. وسوف نصرخ جميعاً على السماء، إذا ما جاع أحدهم وحوّلوه إلى خروف مجاني.

وكشرقيين كبار نؤمن بثالوث لا يتغير (الأم) (الوطن) (الله)، وسيبقى هذا خارج التصويت العام، ولا يمكن تعديله بحق (الفيتو)، ولا بأس من حروب عديدة، قادمة، تساعدنا على زراعة ضمائرنا في ميتات جديدة.

فالحياة ليست مجرد بقاء كائن نصفه حلم والآخر مرحاض... هناك ما لا يختلف عليه مجنون ولا عاقل حق التراب تحت قدميك وحفنة الهواء وجرعة ماء وظلك الصغير تحت سماء لا تتكرر.

ومهما كبرنا أو صغرنا، صعدنا أو نزلنا، هربنا مذعورين أم صمدنا... فإن هذا لا يزيد قلبك ولا ينقصه دقة... الحياة دفقة صغيرة، من الغباءِ الحفاظُ عليها بما لا يليق... اغمض عينيك لا يبقَ للحياة من أثر.

مات نزيل مودِّع توًّا، قرب سرير ملاحظ الردهة العمومية، فشدّت على يده ورقة صغيرة مكتوب عليها بخط رديء، اسمه المحتمل ورقمه الخاص في قائمة الادوية، وزحف به (مجانين) آخرون هم أقل انطفاءً، وأكثر انتباهاً في معرفة الأوامر.

ثم سرعان ما استقر مبتسماً في ثلاجة الموتى. رافقتني قليلاً، مواصلة الزحف البطيء، معهم، ذلك الخط الذي تكوّنه (بطانية) قذرة، وهي تحدو به إلى أسفل، حركة أيادٍ سود، تقاطعها أعصاب

عبارة عن (وايرات) كهربائية قديمة التأسيس.

وثمة بلاهة في نقل الحمولة، فمرّة إلى اليمين وأخرى إلى يسار ليس هو كذلك. وفتح شرطي بوجه مربع وبلا (بيرية) البوابة الخارجية وضرب مؤخرة أحدهم. وكانت المساحة المتبقية، في وقتها الضائع.

تغتنم الفرصة لتقليص الرحلة باتجاه ثلاجة الموتى، (أمّهُ العجوز... كانت هنا، وهو يرفض العودة، ويعترض على شرطي المرور دائماً). وعندما أرسلت بصري، صوب البناء الأثري المربع والمربع جدًّا.

لا يتصور أحد أفواح الجثث الساكنة هناك بجدارة، فم مربع هو الآخر، مرصع بالمسامير التي أعطيت علامات اتساق تدلُّ على الرتابة، هناك مقبض صريح لا ثقب له، ومقبض آخر ذليل يركن جانباً.

وكان علينا الاستعانة بعامل التنظيف حتى يتم لنا فتح (باب السمسم)، وخلال المحاولة البطولية.... تأملت أضلاع المربع، على الجانبين قطع صفيح مدعوكة، وعلامات جليدية مبقّعة على الوركين.

وكان ظاهراً للعيان العمر التفصيلي الذي حصل عليه بناءٌ كهذا، ومن الرائحة المفوار اتضح لنا إنفتاح المشهد، ولم يكن ثمة شيء مهم هناك. رأيت كلاليب أعضاء بلون عظام المتحف.

علّقت عليها أوراق منكمشة ومدعوكة... أجساد مصففة

ومتروكـة طوابـق، طوابـق، ومـن فجـوات السـاقين والاسـتطالة والاستدارة يتم لنا التفريق والتمييز والاختلاف بين الجنس أو النوع.

وجوه ممسـوحة وغائبة تسقط ظلها على دزينة من الجلود اليابسة المدبوغـة جيداً والمعلبة مطروقٌ عليها حزمةً من العظام المدبدبة، ولها أحياناً بعض السمات الجميلة المتساقطة هنا وهناك.

وقـف الجميـع وقفـة اسـتعداد، وهـم حائـرون ينتابهـم شيء من الضيـق. ليس من هـول ما رأوه... بل لأنهم يفكرون فحسـب. بأي فجوة يتم فيها حشر الزائر الجديد؟. تلك هي المعضلة!.

الفاصل السابع

مرسَمُ اللَّقالق الخشبية

مـا مِـن أحد قادر بسـهولة شـيطانية على تلوين الرتـوش الخلفية التـي عرفناهـا في مرسـم اللقالق الخشـبية، نظراً إلى كمية الأسـاطير والتصريحـات الـلا متناهية التي نالـت من كرامـة اللقالق وعرّضت مصيرها للقلق.

أحدهم فقط هو الذي أذعن بسهولة لافتة للنظر إلى محاولة تزيين عـش اللقالـق، ووضع كومة من أكداس خشـب اللوحـات التالفة، وعلّق نفسـه بسـقف المرسـم القديم، غير آبهٍ بتحذيـر كادر المصحة، ولا بعـدد العِـبَر والعظـات التي عرضـت عليه ذاكرات الأكبر سـنًّا والأكثر إحباطاً.

وبذل جهداً أسـطوريًّا في تحريك مؤخرة لقلق كبير وغير نظامي، قيـل عنه آخـر النهار في (بهو الشـاي القـذر)، إنه مـات، لأن اللقلق الكبير أطلق هواءً حامضاً من فصيلة الكاربون، فأرداه قتيلاً من فرط الخجل.

أبو رياض (٦٠ عاماً)، قال حسبما رواه له أحد الطهاة، إن الحكاية لا تخلـو من مبالغة وتشـهير صوري، هذه اللقالق خشـبية، وهذا هو (أحدهم) فليكرر المأساة. ولم يتبرع (أحدهم) بتكرار المشهد.

أوعـزت لي الممرضة (نسرين) بحركة اسـتخفاف ألّا أحفل بكل هـذا، والأسـلم هـو الانتبـاه إلى ما يجـري في فنـاء الطهـاة، وكرجل حصيف لي اهتمامات بالفلسـفة ومجال العقلانيات، فإن عبادة العقل واجبة، وما عدا ذلك فهو جنون.

هذا (الماعدا) هو الذي قررته اللقالق الخشبية (أبو رياض) مدمن التسبيح والاعتقاد، ولعبة الدومينو. وهو الذي ارتأى آخر المطاف أن لا نصدق حكاية (الحرب الثلاثينية).

وأن لا شيء سيحدث، حتى حكاية (أسراب البط التي استحالت إلى شموس صغيرة) لا أساس لها من الصحة، لا بط ولا هم يحزنون، إن عينيه الواثقتين وفمه القططي الأملس وحركة أصابعه الغليظة ترينا بضمير أب مبتلى بدزينة حمقى من أطفال المنزل ما معنى أن يحكم الأب، التاريخ ويراجع أكثر فصوله معقولية وأشدّها ضرورة.

الفناء الداخلي لردهة الفاقدين، فارغ تماماً، تقطعه بالمجان حركات أقدام متكاسلة، لم تأخذ كفايتها من النوم، ولها الحق قليلاً بالتريض قرب كومة الأزبال أو عند واجهات الحمامات الخلفية المكتظة بالمياه الآسنة ولها صليل حاد.

لا تزال، تلك البوابة الملساء التي أدمنت شبه الضوء الناعس، وضيقت عينيها على دزينة من الأحياء العظيمة، وهي تطلق فحيحها الخافت وتجتهد في إخراج بقايا غبار كلمات لم يسمعها أحد.

فلا شيء إذن يعكر هدوء ذباب الردهة. والبط تبخر هو الآخر وتحوّل إلى نشرات الأخبار. خلف آخر الأسوار (الكونكريتية) لم يفعل الفتى الصابئي المكلّف بإدارة الاستعلامات على تنظيم الهجوم السكاني، الذي شاركت فيه حشود من النساء والرجال.

هؤلاء الذين تُطلق عليهم عادةً كلمة لا تبدو مناسبة تماماً بـــ

(ذوي المجانين) أو (ذوي المخابيل) يحملون أكياساً ثقيلة معبأة بـ (البطاطا)، ودائماً البطاطا، ولا بأس التمر أيضاً، وقطع الملابس.

سخانات كهربائية ذهب أوانها، علب كبريت، أكداس من السجائر، وكل ما يشكّل تعويضاً مناسباً يختصر أحلامًا وتطلعات أخرى يمدها واقع الحرب هنا إلى الداخل.. الداخل جدًّا.

الداخل الأعمى المقيت، وآخر الموازنات المتبقية، هو سؤال الأسئلة الملحّة.

ماذا سيبقى غداً بعد أن تحلّق اللقالق الخشبية، وتطلق هواءً حامضاً؟.

خرجت الممرضة (نسرين) شبه مذهولة وهي تدمدم:

- إلى أين سنذهب، إذا كانت هذه هي حدود الأرض كلها؟.

وكان بودي أن أضيف بصوتٍ عالٍ:

- وحدود السماء أيضاً.

وحركت اللقالق الخشبية رؤوسها المتصلبة. مستردة بقايا حلم عتيق للطيران وقوفاً. وبدأت الحصانات تتناقص كحباة مسبحة بعد أن أتيح لأفواج الداخلين نصرٌ جديدٌ على أمل الهجرة فيما بعد مع اللقالق بعيداً.. بعيداً جداً... أبعد قليلاً من الجنون الذي ألفناه.

الفاصل الثامن

بقايا كلاب قبل الفجر

حلـم الشـاي هـو رائحتـه، وإذا ما انقلـب الكون إلى فـراغ، فإنّ كأسـا صغيرة من الشاي تعيده ممتلئاً، حرس البوابة الأمامية يحلمون كغيرهـم مـن عـمال الانتظار بـكأس من الشـاي وقبلة من سـيجارة (رخيصة).

حلـم نصف أعرج، فالليل مصرٌّ ولا يزال مصرًّا على ألَّا يبتسـم، وهذه الخفافيش كلها تكفي للحراسة، للزعيق الخافت والإبصار بلا عينـين، شيءٌ واحد يـدوم ويزعزع الثقة، عواء كلـب، صراخ باطني يحيل المشاعر إلى شتاءات متأصلة ومندسة في مسامات الجلد الطفولي العنيد.

مطرٌ وكلابٌ، بردٌ ودثار مهترِّئ، زوايا منزل فقير وكومة بعوض تراقص سور المنزل في الأحياء القديمة، هناك أمهات موزعات، وراء كل عـواء كلـب انتظارات ليليـة، وعودات متأخرة لآبـاء لا يجيدون مساء التلفاز وارتخاء الصالات الوثيرة.

كلـماتٌ نابيـة، وكُفـرٌ مجـاني غـير مقصـود، عِنـادات إخـوة كبار وطباخـات نفطيـة عتيقـة تُعـد العشـاء الأخـير للطفولـة الراحلـة، صفارات حراس الأزقة لهم معاطف كلها فراء، وضياع ابنة الجيران، وحيرتنـا الدائمـة بمـن نرسـل، ليـلاً، رغم الـكلاب ليجلـب علبة الكبريت أو قرص الأسبرين من حانوت آخر الرواق.

كلاب لا بـدَّ منهـا لصناعة ذاكرة رجولية والآن، الآن وهنا البهو الداخلي لا ضوء فيه، وكذلك باقي الأرجاء. أصوات ملحّة لطلقات بعيدة وسماء لا تعبأ بأحلام الشاي، حتى يصبح الموت يسيراً.

تذكّر أي عرّاف عابرٍ قال لك شيئاً عن ثلاث زوجات قادمات وحظٍّ سعيدٍ ستحصل عليه آخر العمر. تذكّر عدد المُسنين في فصيلة العشيرة التي تنتسب إليها، واخترع ما شئت من المستقبل الذي تراهن عليه.

وجفّف حياتك بين جدران من الطابوق وانهماك جميل مع أقراص بلاستيكية صغيرة تراقصها عصراً مع مسنٍّ آخر هجره أولاده الأبطال حاملين مؤخرات زوجاتهم ونصف عمرك من تضحيات النقود.

تذكّر أي شيء يعطيك الحرية، ألّا تموت برغبة الموت وحده، ترى أي شيء سأتصوره وأنا أشرع بالموت القادم الآن بهيئة مجهولة، ولا بمعية أحد ملائكة الرب المفضلين، بل بقطعة من حديد مدبدبة أو مستقيمة.

شيء يطير، أو يحط، يمرق أو يضرب فحسب، يقطع أو يحكُّ فروة الرأس، أي شيء، أي ميتة لا أريدها لاجتياز محنة - كلاب ما قبل الفجر. الشرطي (أبو عدنان) مثلاً طويل القامة، أصولي، مترفع عن الأكاذيب.

كم يحتاج من العمر الإضافي ومن الجرأة ومن الاستخفاف بالعِبر والتحذيرات ليروي لنا حكاية انفجار ثلاجة الموتى. هذا ما أنوي التبليغ عنه في (بقايا كلاب ما قبل الفجر)، حتى لا يبدو الأمر مرئيًّا.

فإنّ عليَّ غلق الباب الوحيد المؤدي إلى غرفة الممرضة (نسرين)

أولاً، ثم من السهل بعد ذلك قطع المسافة المتبقية نحو الباب الجانبي، الباب الأخير المحصن من الخارج، تشد عضلاته بقطعة من الحديد.

راقدة بهدوء هَرَم مصري، أسفل قليلاً توجد حمالات حديد أخرى ثقيلة جدًّا يشعر المرء بثقلها لا بلمسها، بل بمجرد النظر إليها، ورم سرطاني آخر ينبعج من نافذة (صغيرة) هي عين المراقبة والمتابعة تبدو كأنها مصممة لزمنٍ غير هذا.

ما أن حرَّكت الباب حتى تكلّم تحت يدي بلغة غوغائية وقحة وأشار عليَّ الانفتاح الأسطوري المؤقت، أن أنسى عيني وأسير بمحاذاة الممر الجانبي (المخربش)، وأن أتمهل بقدمي حتى لا أسقط في حفرة ما أو جثة ما، أو ذكرى قديمة.

وكان عليَّ شدُّ أزري وإعارة أعصابي إلى ثلاجة الموتى حتى أصل إليها، خطوات ساهية، تصميم طفولي طائش، حتى لا يشعر الشرطي (أبو عدنان) بنيات السلاحف التي داهمتني في آخر ما تبقى من ليل (العدوان).

فإنّ عليَّ أن أمثّل على نفسي دَور المُسالم الأمين الذي يخبِّئ أنيابه في قهوته المسائية، دون الالتفات إلى أحد. وينحسر الهواء قليلاً، وما عاد ثمة فاصلة محتملة بين الداخل والخارج.

ومن الجدير ذكره، أن مكاناً كهذا لا خارج له، وسرعان ما تفاعل المشهد مع ذاته قليلاً، وعوت الكلاب، لا أدري، إذا ما كان ذلك عواءً حقًّا أم أصوات ألسِنةٍ خرساء ابتلعت شراشف الأسرَّة

وغاصت في معدتها قواقع وسالوفات عجائز وكمادات بيضاء ومكانس ذات مقابض خشبية و(طبلات استبانة).

آلاف من بصمات الجوع والوحشية وفنطازيا الانتظار، صمدت هناك طويلاً أو أقل من الزمن المقرر لنزهة صاروخ معاصر. وطارت الرائحة مضغوطة بجدران مربعة بلا ضوء.

جدران بلا نوافذ، فقط كُوات صغيرة دائرية مرسومة عبثاً من أجل إطلاق بقايا فسحات الهواء من الجسد الذي كان بشريًّا. كانت السماء تلعب بالنار، وتشظي الرماد على الأرض.

وثمة هدير، بعيد وبعيد جدًّا يشي بقوانين خارج اللعبة، لقد أخذ العالم كله.... يتحول إلى مجرد عينين، إنه لعبة باهرة، أعياد ميلاد بسعة العالم نفسه تتقاطع هنا وتمارس التنس بالصواريخ.

إلا أن الكلاب ما زالت تدمدم. ورائحة احتراق شيءٍ ما وصوت أسلحة (عمال الانتظار). كل هذا كان يضيعُ عليَّ متابعة ما يجري هناك في الأعالي. وباض الوهم صورة بحجم فص العين ثم اتسعت لتغدو رؤيا شاسعة على قفا الليل.

رؤية أشباح ومريلات بيضاء، أو لعلها رؤية قطع هلامية من المخالب الراكضة على رؤوس أعلام لها ألوان (حسينية) أسود وأخضر وأزرق، شيءٌ أشبه بهذا الوهم الذي أفرز نفسه في ساعات حرجة كهذه.

ثمة رعدة هائلة أطلقت عالياً، وصوت غير مفهوم تحوّل إلى

الخارج، ولم تكن بعدُ مساحة الأذنين كافية (لاستيعابه)، صوتٌ كلّه صوت ولا فجوة فيه للسماع أو لالتقاطه بفجوة انتباهة ممكنة.

وجفل الشرطي (أبو عدنان) وصرخ على نفسه بكلمة (الله أكبر) وانقلب عمال الانتظار على قفاهم، وسكب إبريقَ شايٍ آخر الليل، وتوقف راديو صغير عن التنفس، وهاجت فصائل المجانين محتجة خلف الجدران الواقية.

وزأر (طائر الجنون) مقلّداً صوت ذئب عجوز يسحب بقايا نعجة عجفاء بين أنيابه الهرمة، ثم صوت عصفور يتناوم باكرًا، ثم صوت بومة في غابة خالية من السكان، ثم صوت (حسيب) وهو يقول:

- الحرب ما هي إلا مارد كبير اغتسل بإبريقٍ صغير. ثم سرعان ما تمطى محطِّماً ذلك

الإبريق البائس.

وقد مدّ يده إلى السماء لينشِّف بها بقايا قطرات ماءٍ حطّت على مؤخرته، فسحب معه كل السماء وكل الأرض إلى باطن كفَّيه. وكان ذلك أكثر رهبة من قتل طفلٍ في صرّة ملابسه الجميلة، وأشدّ فظاعة من حريق جثث مبقورة الأمعاء.

سكن ليل الجريمة وعاث الهواء الكبريتي فساداً بأحلام الوسائد، ورسم الطيّار الأمريكي علامة الصليب، وراح محلّقاً يدفع غيوم بلادي بصدر طائرته المجردة من حمالات النهدين وهو يصغي إلى

صوت حضارة لا تسِرُّ أحداً.

لم يكـن الانفجـار صاروخيًّـا، أو هكـذا خيّـل إليَّ، إنـه شيءٌ ما، حدث مـن الأرض من مكان قريب جدًّا، جـوار دقّة القلب ورهافة الأعصـاب داخـل نقطـة مركزيـة مربعـة الظلمـة بمحـاذاة الحديقة الخارجية.

مـا يُطلـق عليها عـادةً (ثلاجـة الموتـى) ونحن نسـميها (ثلاجة البوظـة)، ثمة جـدران طارت وأخـرى تنتظر، حيـوات توقفت عن الجنون وأخرى عن الأمل، رائحةٌ تأكل ببطءٍ (أحدهم يقيء حشرات معدته)، شيءٌ أشبه بذلك.

الكلاب في حيرة من أمرها، حالات نهش وصوت فكوك نشيطة تطقطـق، حـراس فزعـون، جثث رطبة وأخـرى مشـدودة بلا أدنى تواضع للحضور.... لم يكلّف أحد نفسـه عناء الفهم أو المشـاركة في تغيير موضع الحدث الذي أدلق أمامنا بلا تردد.

ثمة كلب واحد أسـود اللون، شـاهدته يمرق سريعاً محاذياً كومة النـيران، وهو بـدلاً مـن الانقضاض عـلى وليمة الجثـث تلك، أخذ يدافع بأنيابه البيض اللامعة ويمنع الكلاب الأخرى.

شيء مسـتحيل، أعـرف هـذا، إلّا أن كلباً واحداً يكـفُّ عن أداء كلبيته أمرٌ واردٌ إزاء فظاعة ما يجري هنا، بتدبيرٍ مسلح.

كانت هناك أشجار لا تزال واقفة بهدوء

وحفنة نجوم مرصعة على خوذة السماء

وكانت هناك دعوة لخروج جميع الجثث

دعوة لعودة الموت إلى الحياة

وعودة الحياة إلى الموت

دعوة عاجلة لإعادة الحلم

الأمريكي إلى حضيرة الجثث

والكلاب وحدها تصلح أن تجلس

مع طيّار أمريكي

على طاولة المباحثات

فلا شيء بشريٌّ على الإطلاق

يتم كلامه مع جنون كهذا

أليس كذلك أيها الصبر؟

الفاصل التاسع

أذيال فاجنر

سيكون رماديًا حجم الثُّؤلول المنبعج كشماعة ملابس من مؤخرة رأس الأبلـه الضاحـك، الذي قرروه بجدارة ملتقطـاً أعضاء الجثث التي انفجرت فجأة في ليلة (كلاب ما قبل الفجر).

وجـهٌ إسـفلتي أملـس، عينـان غائرتـان لهما حوض عظـام وفك مدلوق على سـعته إلى أسـفل يسـمونه (زورقاً) أو (أبـو بريص حلبة السباق)، ربما لسرعته الخارقة في المشي بين جيوب الردهات.

وأحيانـاً تهمـس عليـه الممرضـة نسريـن معابثة زميلهـا الصغير، وهي تشـير إلى أسـفل دشداشـته عندما يقعد مقرفصاً ماسـحاً بلاط غرفـة (اللجنة الطبيـة) تراقبه الممرضة (نسريـن) بإلحاح وهي تطلق ضحكات متوترة.

هو البطل الظلامي الذي جرّد الكلاب جميعاً من كافة صلاحياتها المباشرة لتشـتيت شـمل جثة، وعلينا جميعاً التدرّب من الآن فصاعداً على بطولات مماثلة، لا أعرف من أين دخل علينا أناس جدد، رجال، رجال كثيرون.

وجـوهٌ فولاذية بشـوارب طويلة كثة، مثل فراشـات بلاسـتيكية ملصقـة بدبوس صغير على حافة جرف لا يبتسـم، وأخـذوا يعدّون تقريراً عن شهية كلاب مصحتنا وما بقي لديها من خزانة العظام.

(حسـيب) جـازف بمؤونتـه الضائعة، وشـقّ الصـف العريض المخصص له وتقدّم لاهثاً ترتفع رئتاه بعنف وترتجف واقيات جبهته الأمامية، يضع على رأسه إكليلاً من أزهار ذابلة معجونة بالرماد.

- ماذا تقول.... أجب؟

- الكلاب لا ذنب لها.

- أية كلاب؟

- هم الذين أطلقوا الهواء، على الكلاب وجدّفوا على الجثث.

- لم أفهم، ماذا جرى ليلة أمس، ماذا فعلت الكلاب؟.

ووجد (حسيب) نفسه في مأزق لا يطاق، لأول مرة، يجابه بأسئلة واضحة، لأول مرة في تاريخ ذاكرته المكهربة يُسأل لا من أجل أن وضع علامة جديدة في دفتره الصحي، بل ليشهد شهادة تاريخية.

وصمت حقًّا بعمق لا يطاق، صمت ليفكر أبعد من حافات القازان وأعلى من جدران المصحة وأكثر أهمية من بندقية الشرطي (أبو عدنان). كان الرجال الجدد يوجهون له الاحترام.

نعم، إنّه محترم الآن، هؤلاء القوم لا يرتدون مريلات بيضاء ولا دخل لهم بأسراب البط التي استحالت إلى شموس، حتى طلب سيجارة حقيقية، وبادر أحدهم، رجلٌ عريض الكتفين يرتدي (الكاكي) وعنده نجوم على كتفيه.

تمنّى (حسيب) لو أنه يعرف العدّ ليحصي كل هذه النجوم التي يراها لأول مرة بحوزة أناس من لحم ودم، بادر هذا الرجل الفولاذي فأعطاه سيجارة (سومر) من النوع الطويل، سيجارة حقيقية لا ورقة لفاف، وليست شظية ساخنة من الحديد.

وقرر أن لا يكذب بعد الآن وتكلّم، تكلّم بصوت لا يخص أحداً حتى ولا هو، صوت أكثر صلابة من حديث الطائرات ونزهات الصواريخ، وهمس المدرعات.... وقال أشياء كثيرة لا أتذكرها، إلا أنه بكى أخيراً وكأنه يغتسل بدموعه، وأجاب صارخاً:

- لا يوجد كلاب على الأرض، إن الجثث كلها كانت مطراً قادماً من السماء، كل الذي أتمناه

كمجنون طيب أن أراه... أن أرى ابن الزانية ذاك!.

- مَن، مَن هو الذي تريد أن تراه يا حسيب؟.

وتأمل الوجوه الإنسانية من جديد وألقى ببقايا جسده الهزيل بين ذراعي أكثرهم بأساً وأشدهم حرصاً على شيء ما لم يفهمه (حسيب) بعد، ودمدم بكلام نصفه حشرجة:

- الذي عاث فساداً بأصدقائي القدامى واغتالهم وهم نيام، سلبهم حقهم الوحيد الذي لا ثمن فيه،

موتهم الطفولي.

هناك صفوف عريضة من النزلاء يحملون (طاساتهم) الفارغة ويشكّلون سوراً غير نظامي، حزام من الهياكل العظمية مرشحة لهضم أي شيء، كانوا أشبه بحشائش متيبسة، محطات خريف، أو سعف نخيل مبعثر في بستان مهجور.

وما أن قرروا إعادة ترتيب الأرقام، علاماتهم الوحيدة التي ما زالوا يعرفون بها حتى خيِّل إليهم أن ثمة ما سيؤكل الآن، شيئاً ما، له

علاقة بـــ (السليقة)، هاجس الجنون (الأبيض) الساطع الذي لا يزال يحرّك أنفاسهم، ويُساعد خلاياهم على التكاثر.

سوف يقومون بتعبئة كلٍّ منّا ويحشروننا بعجالة في مؤخرات سياراتهم، سنذهب لنقاتل أخيراً أفضل مما نظل ها هنا قاعدين، وما أن حضر (الدكتور باهر) حتى تم لنا أمل جديد في المغادرة.

ثمة كلام لا تحمد عقباه كان يدور بألفاظ لم تعد متداولة هنا، مسؤولية مَن؟

مَن هو المسؤول؟.

مسؤولية أقل أو أكثر لا فرق، مسؤوليات أخرى، أخذ الكلام عنها يأخذ صيغة جدية ولا شيء يدور حول عقاب الكلاب التي تسللت في لحظة ليل وأخذت نصيبها من البشر. الدكتور (باهر) رجل قصير القامة ذو نظارتين، رشيق الحركة مبتسم دائماً.

منهمك جدًّا، يُعنى بذات القوة بنملة حائرة أو مريض يحتضر، ولا يفسر شيئاً خارج أنف عيادته المتنقلة (سقوط برج إيفل، هذا من فرط الكآبة، وتغير دستور دولة جمهورية، أمرٌ له علاقة بالأرق المزمن والإفراط بالعادة السرية).

أخذ لنفسه وضعاً منعزلاً بين ألسنة النار وعيون المرضى المرتبكة وذكريات كلاب ما قبل الفجر:

- سيوضح الأمر لكم، نعم، الحقيقة التي عليَّ تسجيلها هي باختصار، نحن نموت هنا، لا

محالة. نعم، أيها السـادة؛ فمنذ ليلة العدوان ونحن هنا بلا طعام. ولا دخل لأيٍّ كان بهذا، بغض النظر عن كوننا لم نعد خزيناً احتياطيًا لموقف كهذا.

وعدّل من وضع نظارتيه ونظر نظرة عريضة إلى ما حوله وأجاب:

- كل مـا بقي هنا، شرطة لا بدَّ لها أن تأكل هي الأخرى، وهؤلاء جميعاً يتساقطون... بسرعة

البرق.... علاوة على أن ثلاجة الموتى ذهبت إلى الجحيم.

وران صمت كوني على الجميع، وشدّ الآخرون أحزمتهم الغليظة وشعروا معاً، كلهم بلا استثناء أن جهاداً حقيقيًا يجري هنا، وما أن انصرف (الغرباء) وأغلقوا خلفهم البوابة الحديدية علامة الصليب.

حتى أخذ النزلاء يتفرقون- جماعات- وهم يفكرون... بأي حق يمنعهم الدكتور (باهر) من أكل لحوم هؤلاء الغرباء، الذين لا نعرف حتى أسـماءهم. وربـت الدكتور (باهـر) على كتفي وسـار بي خارج أمعاء الردهات إلى حيث (دار الأطباء).

وهناك جلسنا متجاورين في غرفة نظيفة، ومن آلة تسجيل تعمل على البطاريات، كانت ثمة موسيقى عنيفة نسبيًا تنبعث من هناك.... موسيقى محتشدة لا تحزر حركاتها.

ومال رأسي مع الموسيقى وأغمضت عينيَّ.... وسمحت لحافات أخرى من العالم أن تشـاطرني محنتي الرهيبة... وما أن داهمني نعاس الموسيقى حتى أيقظني (فاجنر) بضربات عنيفة وقساوة باذخة.

هـي الأخرى شـاهدت (فاجنر) يجمع دفاتره الموسـيقية، ويشـدُّ أذيال بذلة (المايسترو) ويفر هارباً... تطارده جوقة من النزلاء وتطالبه بإلحـاح مقيت أن لا يقذف عقب سـيجارته من نافذة السـيارة... بل على قمامة أزبال قريبة... وبمتناول اليد إن أمكن.

الفاصل العاشر

قطعة حلوى فاخرة
على صليب أحمر

انتزعوا بمهارة قنفذ كل ما يمكن أن يعد آلة جارحة، وهذا يعني عدة أشياء ينبغي تخيلها، عُـدَدُ الطبخ، وهـي قطعاً لم تعـد لها فائدة بعـد أن بلغ الحصار أوجّـه، وأدوات الزينة للرجال الذين لا يحبذون احتمال شعر جلودهم.

أمرٌ كهذا أطلقه (الدكتور باهر) بعد أن أقرَّ مضطراً نظرية التناغم البدهي بين (الجوع) و (الجنون). هناك معارك عديدة وقعت أسفرت عن مقتل اثنين من الفاقدين وجرح ثلاثة آخرين.

وهناك حسـاب احتمالات قادمة، لأن يخرج الجنون كامل معداته ويأكل نفسـه بنفسـه. لم يطل العُمر بـــ (أبي رياض ٦٠ سـنة)، فقد وجـدوه ميتـاً في الحمّام إثر نزيـف في القولون، حملـوه سريعاً، بعد أن تـآزرت عليـه ثلة من رفاقـه بالدومينو وهم يتمازحـون بذكر الديون التي كان مطالباً بتسديدها.

وبدأ العد التنازلي لسكان هذا المكان يسجل كل ساعة رقماً قياسيًّا جديـداً للموت جنوناً، وأصبحت الردهات شـبه فارغة، أفواه كبيرة بلا أسـنان تطـلُّ على بعضها بعض ألوان كالحـة وجدران صُفر بلون المخاط.

وهي تكتسي مظهراً ساكناً ومبالغاً في وحشته، خاصة عند أوقات الغروب، حيث يصبح المشـهد صحراويًّا وصـوت الخفافيش يبعث شعوراً بأنك تحرك أعضاءك تحت الأرض.

الموتى الجدد تكدسـوا في غرفة الطـوارئ إلى جانب أنابيب الغاز

بمظهرها الشيطاني المريب، أحدهم مات وهو حاشر رأسه في مقعد المرحاض. صادفت السكرتيرة (هيفاء) بوجه ليموني باهت وهي تمرق قبال ردهتنا البائسة.

راعني مشاهدة عينيها المجهدتين، وقد انتشرت دمامل صغيرة على خدها الأيسر، وشمَّرت عن ساعديها واضعة مئزراً أسود أخذ شكل (أفعى)، لينة تنشر جسدها على كتفيها باطمئنان وهي تهمُّ بتدارك أمرٍ ما.

زوبعة فنجان، موعد قريب لموتٍ مؤكد: انفجار حوصلة أحد المجانين، أو لعله انفجار بالوعة أو خبر مؤكد أكثر على نهاية ما يحدث، شيء ما يعيد لها مجانينها الصغار بهلوساتهم المعهودة وتدافعهم المثير على صف (القازان).

واعتراضاتهم على كل شيء وعلى لا شيء، إنها لا تزال تراهمُ واقفين، وهي تقدّم لهم الحلوى وتحاول أن تنظم لهم مواعيد مقابلاتهم المقررة مع (اللجنة الطبية). هؤلاء الذين أدمنت عليهم، وتحولوا إلى كل ذاكرتها عن الحياة.

هؤلاء الذين حلمت بهم وفزعت منهم وأطلقت آلاف الأكاذيب من أجل ألّا يمسُّوها بسوء، ولطالما منعت عنهم الوحش الكهربائي، وجادلت أكثر من طبيب رفيع المستوى من أجل ألّا يحسبهم من دون مشاعر ودونها أحاسيس.

ونظرت إليَّ أخيراً، وابتسمت برغم أنف شفتيها، واندفعت

نحوي تشق فراغ الموت وتدفع بصدرها الفتي قانون اليأس المرير:

- أرى أنك لا تزال حيًّا؟ هذا عظيم.

- الحياة مجازاً والموت أقرب الكلمات إلى الله من باقي البشر.

- وما زلت فيلسوفاً.

- صحيح، حتى اللحظة التي أدركت فيها، أن كل الفلسفات لا معنى لها إذا كان الموت هو أس

جميع الأفكار وإرادة كل الإرادات.

- لا أحب أن أراكَ مذعوراً وفاقد الإحساس بعظمة ما نقوم به.

- كلا.. لا تظني بي سوءاً، وكوني على يقين بأني على سعة اطلاعي لم أقرأ أو أسمع حالة ما،

تقرر موت مجنون مسالم بهذه الطريقة.

وما أن نطقت بذلك الكلام حتى أخذت ترتجف وتراقص الشال الأسود على كتفيها وصرخت بي:

- لا أحد يموت هنا، لا أحد، المجانين لا يموتون، والجنون هو ألَّا تموت إذا ما فقدت عقلك....

هذا يعني أن لا تموت أبداً... والآن عُد إلى غرفتك ولا تفكر كثيراً.

ما أن غادرتني حتى انتابني شعور إزاءها بأنها الكائن الوحيد الذي لا يسمح حتى للموت نفسه أن يقدّم أوراق اعتماده دون إذن

منـه. فهنـا أبصرت (حسـيبًا) للحظة وهو يحمل دزينـة من الملابس، وزوجين من الأحذية المطاطية، وهو يرسم علامة النصر باتجاهي.

وكأنـه يذكّرني بأهميـة كوننا لا نزال نمارس دقـات قلوبنا بحرية، وفي آخـر المطاف قررت أن أعقـد الآمال، على حرب قادمة، خلاص أو شـبه خـلاص.... فراراً مـن الجحيم، من العدّ التنـازلي لصمود لم أعد أفهمه، ذلك التمرين الغريب لأن تموت مبتسماً.

(أجسـاد عجـزة، وجوه لها رائحـة المراحيض، ذبـاب معدة ذات انخفـاض غـضروفي، ولعبة اسـمها الرغبة، موحشـة برغم انسـفاح العمر على جادة أشلاء مناسبة للاحتجاج).

وذوت ويبسـت حتى حشرات المستنقع، لا يزال في المدى البعيد صـولات ضوء لا ينبعث من حجرة في موقد شـتائي، بل من انفلاق كوكب ناري أو لعلها الشمس، تلك التي قدّر عليها أن تتنبأ بشموس صغيرة أقل منها شأناً.

وعقـدت أخـيراً، وبعـد عـدد كافٍ مـن الجثـث الطازجـة لجنـة (الأطبـاء) وتم لهم أخيراً... إطلاق الجنون إلى الشـارع، وكانت على مائدة خشبية طويلة أوراق مباحة، مباحة جدًّا بحاجة إلى توقيع.

نظـر رئيـس اللجنـة بوجـوه كل الحاضريـن، كلهم سـواء نظرة ممسوحة وعدد من السجائر في مطفأة زجاجية.

- في الحـرب كـما اعتقد، يتحـوّل جميع الناس إلى الخـارج، وتهدم البيوت نفسها والعمارات

والمؤسسات الأنيقة. في الحرب يتحول كل الناس إلى وطن، كل الضوابط والقوانين من أجل

الوطن أليس كذلك؟.

لم يتفوه أحد بشيء... الأمر واقعي ولا رأي هناك... هل يبيح لنا ذلك، إطلاق المجانين إلى الشارع؟.

السؤال نفسه لا يقل جنوناً عن الإجابة بشقيها... نعم، أو لا.

ودفع الباب فجأة، فتح على مصراعيه، شق من الداخل وجاءت الإجابة بلسان حال، لا غبار عليه، لسان وردي يلعق شفتين بلا اصباغ، وظهر جسد مجهد جدًّا، وله حق الكلام بلا مقدمات، بلا مسوّغات، بلا تزلف وصولي، ونطق رئيس اللجنة الموقرة قائلاً:

- لا... لا... سيادة رئيس لجنة المستشفى، السادة الأفاضل، باحترام تام وبكامل أصول اللياقة

أقول:

إنّ المعادلة هنا في غاية الحساسية، إنها مصير ما ندعوهم عادة بـ (المرضى) وهم غالباً يمثلون (سفينة المجانين) التي من المفروض أنها تقطع الآن طريقها في عرض البحر، أو في أقل تقدير، إنها تحظى برعاية الربان وطاقم السفينة ومن القائمين بأعمال العقل.

- اختصري ست هيفاء.

- باختصار، كما أننا لم نعطهم قرارنا بالجنون متى وكيف، فلا قرار لنا كيف يكون موقفهم

الآن!

قطب جبينه (رئيس اللجنة) وعدّل من وضع الأوراق المقررة أمامه وقال:

- ما معنى ما تقولين؟

- أعني سيادة رئيس اللجنة الموقرة... أن المعادلة الآن تعود لهم.. ولهم وحدهم فحسب..

- هل أثّر عليك زمن العمل هنا.

- لا فرق...

- لا فرق؟ ما معنى هذا؟

- ببساطة... أنا أعني... أن المجانين الآن أحرارٌ تماماً، ولا أحد له الحق أن يقرر لهم كيف

يموتون ما دام لا أحد له الحق في أن يمنحهم الحياة التي لا يعرفونها.

تنامى الصمت، وقرر وحكم نفسه إلهاً جديداً. أقرّ بهول المفاجأة، وأعطى الحق كله، بلا تردد، لمجنون قرر أن يؤدي هو الآخر حق الحرب التي عليه، وحق الوطن الذي تقاسم فيه في القليل مرق (القازان).

وذهبت الأوراق الرسـمية الكثيرة إلى سـلّة المهملات. وشعرت هيفـاء لأول مرة أنها تقدم طفل الجنون إلى غرفة الأوكسـجين، وهي تعلـم أن لا هـواء هنـاك. وما أن قـرر رئيس لجنة الأطبـاء، النهوض من كراسي الأمل حتى دخل أحدهم ليعلن وصول قافلة جديدة من متفقدي الحرب والسلام.

وعـاود الحضـور الجلـوس عـلى كراسـيهم الجلديـة ذات اللون الأسود وهم يبتسـمون ابتسامات خفيفة، تشبه الايماءات الشخصية لرجـال المؤتمرات السياسـية، ودخـل عليهم رجل وسـيم بنظارات شمسية ملوّنة مصنوعة في اليابان.

ويضـع ربطـة عنق تنم عن ذوق بورجوازي رفيـع ويتأبط أوراقاً جلديـة سـوداء ويضع عـلى جبينه قطعـة صغيرة من النايلـون مدوَّنٍ عليهـا معلومات تخص صفته وصورة شـخصية ملونة مختومة بتركيز تنتهـي بقراصـة ملابس معدنيـة لمحتها (هيفاء) وشـعرت أن الرجل يتدلى من حبل غسيل.

ومـا أن فتح فمه حتى جاء صوته شـبيهاً بأصوات إذاعة (مونت كارلو)، وبالغ القادم الجديد بعدد التحيات التي وجهها، وكان يُكثر مـن كلمة (نحـن) وهي تنتظر، تنتظر حدَّ أنها مزقت حافة الفسـتان، وهي تدعكه وكأنها تعيد غسله وقوفاً.

وسرعان ما اسـتقر ممثل (الصليب الأحمـر) في المقعد المؤثث على يسـار كرسي المدير، واضطـرت هي أن تبقى واقفة بمحاذاة السـتائر الطويلة التي كانت واجمة هناك.

لم يذكر أحدٌ أنه فرّقها يوماً ما عن النوافذ، حتى أصبحت الستائر والنوافذ واحدة في غرفة المصائر الساخنة تلك. وللحظة انتزع (الصليب الأحمر) نفسه من الكرسي وبدا كمهرج السلطان، واندفع منحنياً صوب هيفاء وهو يدمدم:

- بوركت، لقد سمعت عنك كثيراً سيدة هيفاء.

ولم تجب بشيء.

- صمودكم لا مثيل له والله.

ثم أخرج علبة كارتونية مربعة الشكل وفتح غطاءها المضغوط من النايلون الأحمر الرقيق مزينة بصور كارتات أعياد الميلاد، ومدّها إلى الأمام قليلاً، مبتدئاً بالمدير الذي احمرَّ وجهه بعض الشيء.

وغمس باطن كفه ليغرف بكامل ما لديه من أصابع خشنة قطع (الشوكولاتا) حشوة الحليب، وسرعان ما بدأ لغط الآخرين يعم غرفة الصمت والقرارات الجهنمية، وقاءت علبة (اليا نصيب) محتوياتها في أيادي الآخرين.

وسرعان ما زمّت الأفواه راسمة شكل مؤخرات دجاج المنزل، وما أن أنهى (فارس الصليب الأحمر) مهمته الأخلاقية حتى أسرع بمد بقايا العلبة إلى السيدة (هيفاء) بكامل اللياقة والاحترام التي أدمن عليها وهو يقول:

- إن زملائي قادمون... نعم صدقوني هناك أشياء كثيرة أخرى قادمة، صحيح أننا لا نعرف

عـدد المحاصريـن هنـا، إلا أن هـذا لا يهـم (هناك خـير من الله) وسوف نحافظ على أرواح ما

تبقـى.... فقـط إن المكان لم يكن مرسـوماً على خرائطنـا جيداً، علاوة على أن لا نداء هناك،

والموضوع ليس خطأ أحد كما تعرفون.

ولم تطـق (هيفـاء) صـبراً.... مزيـداً من الـكلام، وكأنه لا شيء. وانتزعت علبة الكارتون الفاخرة بحركة أرنب بريٍّ. وكطائر محاصر دارت على طاولة الاجتماعات وأعادت انتزاع قطع الحلوى من أكف السادة والسيدات الأفاضل وسط دهشة لا مثيل لها.

زادهـا ارتباك المدير وخجل الفارس الذي يحمل الصليب الأحمر على جيب قميصه الأنيق، وأسقط السيد المدير قطعاً من الحلوى تحت قدميه وهو يراقب عيني السيدة (هيفاء) التي تبدلت ملامحها سريعاً، كأنها مريض جديد يخرجونه للتو من غرفة العلاج الكهربائي.

وضربـت بعقـب حذائهـا أرض الغرفة وفتحت الباب الخشـبي الأملـس على مصراعيـه، وهي تهرول غاضبة.... ومـا أن همّ فارس الصليب الأحمر بالسـؤال وهو يقف كطفل مدلل غشَّـوه بلعبة ورق غير عادلة.

حتى قال المدير مشيراً بحركة عريضة من ذراعيه:

- لا داعي للدهشة، إنها فقط ترضع أطفالها....!

الفاصل الحادي عشر

قيامة حسيب

برجفـة عجفـاء من الضوء، رجفة أخيرة محسـودة من نبضة حياة حافـات العقـل نفذت إلى كرة الرأس الذي بانـت أضلاعه وقلّصت عظام صدغيه، رأسٌ أصلع له مظهر صفيحة أزبال.

جاهد (حسـيب) على حمله في المكان نفسـه طوال خمس وعشرين سـنة بلا منافس، رجفة تنفسـت في ملعب الخراب هـذا وعدَّلت من وضع إكليل الشـوك الذي لم يتوانَ صاحبه عن الإقرار بوجوده رغم أن أحداً غيره لم يؤكد حيازته له.

لا تُقـدّم قحفـة الـرأس طبقـة سـميكة كافيـة لحمايتها مـن الهواء والأشـباح وصدى حشرات نزلاء القاعة هـب (حسيب) واقفاً وهو يشـعر بتماوج جانبي رأسـه العتيـق، عند مؤخرة الردهـة يبتدئ وقته المعتـاد للزحف عـلى قدميه اللتين كانتـا عبارة عن أصابـع طويلة لها شكل أعواد الخيزران بلا أظفر أو شيء من هذا القبيل.

ذكـرى وحيدة إلى درجة اليتم زرعتها فيه قبل زمنٍ مضى السـيدةُ (هيفـاء) عندمـا دسّـت في يـده المعروقـة قطعـة مـن حلـوى فارس (الصليـب الأحمـر) بحشـوة الحليـب، وجفـل (حسـيب) في حينها لبرودة ذلك الشيء الصلب قليلاً.

الـذي يرتدي ملابس مهرج يسـهل تمييزهـا، وإحالة مظهر ذلك الشيء إلى قطعة البلاسـتك الخاصة بحقنة (الموتكيت)، وهو لا يزال يحيا على طعم (الكِريم). المزيد قليلاً في زوايا شفتيه ولا يزال ثمة دبق آخر يترسب تحت جفنيه.

الشـمس لها نظرتهـا الخاصة نحوه، إنه دائما يتمنـى أن يقلي عليها قشـور البيـض التـي كان يواظب عـلى التقاطها ويكرزهـا في أوقات الفراغ بلا أسنان. لفحة هواء باردة أطاحت بالكسل الذي كانت تبثه الجدران بلا اعتذار.

وعـلى مسـافة من قدمه اليـسرى كومة صغيرة لخنفسـاء محدودبة تمـضي بانهماك وعجالة آلية في طريقهـا العريض أكثر مما ينبغي... ثمة صوت غريب مضاعف. صمت آخرين لم يألفه (حسيب) من قبل في الممر الآخر الذي اخترته بدَوري ملجأ لي من ضراوة الجنون.

عثر (حسيب) على دزينة من (الزملاء) ينامون بلا حراك، ينامون بمسـتوى القاع، لا تميزهـم عنها إلا الانبعاجـات الصغيرة والواهية لأضلعهـم المحسـوبة. وكنت أنا بـدَوري ملقى هنـاك معلقاً ذراعي بنافذة (البهو) وتبدو عليَّ علامة الرعب.

همَّ حسيب بتحريكي، فهو الذي يحبني كثيراً، وأنا الوحيد الذي يرغب أن يسـميني (الاستاذ)، وغالباً ما أعبّر له عن مودتي بسيجارة حقيقيـة، وها هـو الآن يفاجأ بي ميتاً قرب الردهـة المخصصة لتقديم طلبات الشـاي من النافذة الوحيدة التي تؤدي إلى (كشك) السجائر الخاص بـــــ (أبي خالد) سابقاً.

وهـزّني بقـوة أعصابه وحدهـا، لا بما لديه من طاقة جسـدية على سـبيل الافتراض، نظر إليَّ بعد يأس نظرة عميقة وهو يشـاهد الموت يحطّ على وجهي كما تحط فراشة على زهرة أو قطرة ماء في إناء مخصص للطيور على سطح منزلنا الجنوبي البعيد.

وأخذ يتحسّـس جيوب سروالي باحثاً عن علبة السجائر المعدنية الصفراء التي تزينها من الخارج سـمكة مطرزة تحرّك رأسها إلى باطن العلبة، وما أن عثر عليها حتى خيّل إليَّ بأنه قال لي: (شكراً).

على الرغم من أن شـفتيه لم تشـيا بذلك، وسرعان ما شعر بالحيرة والارتباك وهو لا يعرف الطريقة البسـيطة التـي عليه اتباعها في فتح العلبـة المعدنية المغلقة بإحكام، ولم يكن بمقدوري بالطبع أن أقدّم له يد المساعدة.

وبحركـة طفل بدائي أخـذ يقضم الصفيحة المعدنية بلا أسـنان، وعندمـا انتابـه اليأس التقـط يدي الملقـاة إلى جواري بـبرودة ودسّ العلبـة هنـاك منتظراً من أصابعـي أن تنقذ رغبته المسـتعرة في تدخين سيجارة.

ومـا أن خذلتـه أخيراً حتى ركلني بقدميه الخشـبيتين، مما أسـقط ذراعـي المعلقة بالنافـذة، وتكوَّمت كجثة هزيلة حديثـة الموت، وقد تدحرجـت نظـارتي الدائريـة إلى جـواري وهي تطلـق صوت تكسر خافت، كان آخر شيء أردت أن أقوله.

وانطلق (حسـيب) مهرولاً بصعوبة يطلق فحيحاً هو كل ما لديه مـن أداء للتنفـس وهـو يفتح بصعوبة بالغـة البوابـة الحديدية علامة الصليـب، وما أن شـغل حيزاً صغـيرا خارجها حتى أبصر أجسـاداً أخرى ملقاة هناك.

أحدهـم يسـبح ببقعةٍ من البـول المتيبس، ولم يكن الآخر يفسـح

مجالاً وافياً للمرور دون المشي عليه، وما أن نجح (حسيب) بالصعود إلى الجانب الآخر من الممر الخارجي عبر اكتاف أحدهم حتى أخذ يطلق صراخاً حادًا لا يتضمن كلمات مفهومة.

فقط صراخ مفتوح وفوضوي يعبّر عن اختناق بلعوم، وقد عاد إليه الصدى بنوبة أخرى دائرية ضاجة، كانت تنذر بصوت طائرة عجوز تسعل في كرسي الإدارة، وما أن وصل هناك حتى رأى بحراً من الأوراق متناثرة على الأرض.

وقد فتحت فمها لتكشف عن فصائل من النمل الأسود بأرجلها المستطيلة والمائلة بانحرافات عرجاء، وهي توزع على نفسها حبات غائطها الصغير والمنقط هنا وهناك. وسبح (حسيب) بكامل زعانفه في موج الأوراق الذي قاده بسلامة نحو الباب الخارجي.

الذي طرح نصفه الأيسر أيضا وأكل نصف جسد شرطي، برزت ساقاه خارجاً لتوحيا لنا بأن البوابة ما هي إلا معطفه العسكري الثقيل الذي سحبه عالياً ليغطي عينيه ليقيهما من ازعاج النجوم التي لا تطفأ ذاتيًا.

وانشغل (حسيب) قليلاً بجمرات (المنقلة) ذات اللون اليربوعي، ونقّب بأصابعه عن شيءٍ ما لكي يحرق فيه شفتيه ويخرج منه روحه المحترقة على هيأة دخان كثيف، وكان شرطي آخر بلا قدمين يفتح عينيه بمقدرة عجيبة.

وهو يحتضن ماسورة بندقيته ويزيل الماء عن عينيه، ووقف

(حسيب) واجماً وهو يشاهد بركة من مرق الطماطم تذهب عبثاً. وبقدرة إعجازية أرسل نصف الشرطي ذاك أمراً لـ (حسيب) بأن يقترب قليلاً.

مزيج من كرم بشري وآخر يؤديه قاع بئر سحيق، وقد بدت عيناه أشبه بعَيني دمية رجالية في محلات الأزياء، ولم يفهم (حسيب) ولم يقترب، على الرغم من أنه أخذ يصحو قليلاً وهو يشاهد أمراً ما لا سابق له على مدى خدمته الطويلة بأمانة وإخلاص لجنونه المديد.

وقلّص الشرطي نصفه المتبقي وزمجر بكامل ما لديه من وقاحة الشرطي وقساوة هراوته المعروفة بأن (اذهب... اذهب خارجاً.. اصرخ يا حسيب هناك اركض، اركض وأخبرهم بنا).

ولعل كلمة (اذهب) فعلت فعلها قليلاً وهي تأتي من غور سحيق وهي تعايش الريح وأشجار اليوكالبتوس، وتحلّق على وسائد الأطفال وعتبات بيوت عجائز المحلة، ولا تنسى أن تحلّق عالياً عالياً لتطلَّ من هناك على أكتاف جندي يخرج باكرًا.

وهو يمسح على عُرف الديكة ويُنبه الكلاب إلى أوان خروج البشر إلى الشوارع، وعلى أم ناعسة تفتح يومها برفع غطاء التنور الطيني وهي تذكر الله بها وبأولادها الصغار وبأبيهم.

الذي لا يحالفه الحظ دائماً وصبية لها أكداس من أحلام النجوم وهي تنتظر من يأخذ بيدها من أحشاء منزل مغلق تحكمه سادة من الأوامر، وبسكير أضاع منزله ونقوده لا لشيء إلا لأنه يفضل الحلم

الكحولي، ولا يطيق رؤية الأشياء تقف على ساقين.

اذهب... ذاهب... يا حسيب... بعد دزينة من السنوات وآلاف من المحاولات الخائبة وأوراق الشفاء التي لا توقّع وتوسلات الأم العجوز التي قررت أن تنسى لحمة من بطنها وتبول عليها بعد إبرة داعرة.

لم تكفَّ عن الوثوق بمؤخرته حتى غدت كومة من العظام لا ثقب فيها وجلسات مغلقة لاقتلاع طائر الجنون من رأسه الذي اعاره إلى إضبارة المستشفى بعد زمن بلا ساعات معدنية تؤثر فيه.

وبعد كل هذا، الآن والآن فحسب يأمره (نصف شرطي) بأن يذهب هو الذي دائماً اعتاد أن يثنيه الآخرون بأن لا يفعلها، فشفاؤه قريب أقرب من حاجبيه ((اذهب)) الآن، وأخذ الكلمة كلها ولم يترك شيئا منها للهواء أو لصوت هذا الشرطي المتبقي هنا.

والذي منحه لأول مرة ثقة القانون وهو يحتضر، وأدار (حسيب) رأسه منقِّباً عن شيءٍ ما، سيجارة واحدة تكفي لنسيان الجحيم. سيجارة... فحسب... أليس كذلك؟.

وحطت راحلته على الطريق الترابي المفروش رملاً وحصى والمزروع بمجانية على جانبيه أشجار اليوكالبتوس وشجيرات رمان، وشيء من الآس المقصوص بلا مهارة، وأخذ الطريق الموحش الكئيب يؤدي تلقائيًّا نحو الأمام الذي هو حتماً الذهاب الذي قصده شرطي المكان هناك.

وشعر (حسيب) أنه يحلّق في الهواء، وأن لا شيء على جانبيه، وكل حركة قدم معناها التعثر والسقوط أو الترنح قليلاً. لأول مرة يمارس المشي خارجاً لا داخل فيه ولا تقطعه أسرّة ولا تحدّه حمّامات أو تعوقه أجساد منافسة.

مكان كله تراب... ولا بدَّ من نهاية للأرض. وأبصر البوابة الحجرية الضخمة، وهي تطل عليه بمشبكات حديدية مبسوطة على طولها ولها أقدام رفيعة أشبه بأقدام اللقالق الخشبية في المرسم الخاص.

وأبصر في حجرة المتابعة طاولة حديدية عليها دفتر ضخم له جناحان طويلان، وإلى جانبه علبة بيضاء مربعة الشكل يغلفها من الخارج لسان غليظ أبيض وأسفله قليلاً ساعة منضدية لها أرقام مقعرة، نسي اسم هذا الشيء.

على الرغم من أنه استخدمه كثيراً يوم كان بحوزته سلك طويل وطويل جداً مع آخرين كان يعرفهم بالأسماء، ويشاء أحياناً أن يشتمهم واحداً واحداً، ويعودون إليه على الرغم من ذلك باستمرار، ثم يستمر طويلاً هو الآخر.

وما أن تخطّى حجرة المتابعة حتى فتح بحركة أصبعه الفزعة باباً صغيراً وسهلاً.. بابًا يتسع لشخص واحد فقط، وكان هو ذلك الشخص دون شك. وخرجَ (حسيب) بكامل ما لديه من أعضاء شبه آدمية إلى خارج آخر لا داخل له. وكانت الأعجوبة.

مكان طولاني، بل هو ذو عرض كذلك واسع جدًّا تقطنه

مخلوقـات مختلفة، أشـياء تتحرك مسرعـة أسرع كثيراً من الخنفسـاء، وكان يظن بذلك لولا أنه فكر أن الخنفساء لم تسبقه أبداً.

وهنـاك (أنـاس) محشـورون داخـل هـذه الصناديـق الحديديـة المسرعـة، وهم يثبتون وجوههم إلى أمام، ودائماً إلى الأمام، ويطلقون من مؤخراتهم الحديدية أصواتاً لم يُسمع مثلها في مرحاض الردهات.

ثمـة (أناس) آخرون يرتـدون ملابس مضحكة تشـبه تلك التي يرتديها الدكتور (باهر) وبعضهم يلبسون ما يشبه ملابس السكرتيرة (هيفـاء)، إلا أنهم يمشـون متصافين (اثنين اثنـين) ويتكلمون برغم الضجيج الذي يطلقه زملاؤهم من الفولاذ.

كان (حسـيب) واقفـاً في الجانـب الآخـر مـن الضـوء عـلى عتبة مملكته العزيزة وهو يشـغل حجـم بوصة في صحراء الرؤية هذه وهو يتذكر بين آونة وأخرى أن لديه شـيئاً يقوله وما عليه إلا معرفة غرفة الاسـتعلامات الصغـيرة والمؤثثـة جيـداً ليدخل منها إلى هـذا المكان الواسع والمكتظ بالآخرين.

لم يلمحـه أحـد ولا نظـرة واحـدة أطلقت عليـه معنـى أو أردته قتيـلاً. لقد فكّر قليلاً بالخطو ولو بمسـاحة قدم صغيرة نحو الداخل ليخبرهم بأن شرطي المكان هناك قال له: اذهب وأخبرهم بنا.

ومرقـت عـلى مسـافة منـه، حـشرة حديدية أخـرى هزيلـة جداً ويقسّم ظهرها زنبور له ملامح بشرية وهو يدغدغها بقدميه وتنطلق هي ضاحكة لتهرب منه إلى الأمام. وعند هذا الحد أطلق (حسـيب)

ضحكة لا طعم لها ولا يشترط فيها أن تكون صادرة.

كضحكة حقًّا عند (أحد) إنها بقايا حلزونية لحنجرة نسيت ترفها اللحمي وأبقت على أوتار شوكية لا يعابثها مخاط. نشازات صغيرة مصرّة على الخروج بهيئة ضحكة آدمية ربما، أو جفراته الخاصة بهيئة (حسيب).

ضاحكاً بذات المعنى الذي وجد نفسه هنا مرسلاً عن (لا أحد) وانتابته هواجس قديمة، ملحّة، وعزيزة عليه، ضحك بمقدار ما لم يضحكه طوال حياته التي عبِّئت فقط برأسه الذي لا يطابق مواصفاتهم ولا يمتُّ لهم بصلة.

ولوّح بيديه عالياً، وأراد أن يضحك أكثر لولا أن صدره الهلامي أنذره بالتريث، وقال بصوت خافت أشبه بصوت كلب بورجوازي مدلّل:

- أنا حسيب طلال هاشم جئت لأخبركم بنا.

وما كان ذلك الكلام موجهاً لأحد تماماً كشاهدة قبر أو كحالة حنوط في (مغتسل عمومي حيث يتم لنا تقميط الميت في آخر مرحلة من مراحل تهيئته لاستقبال حفرة مؤجرة). وبساقين اثنتين إذا لم أخطئ بالحساب. وقف حسيب قبالة نصفين من الذهاب.

أما.... أو.... إلى... أو.... مَن، وبلا تأمل طويل هزّ (حسيب) كتفيه وقال لنفسه:

- لم يعد لديّ متسع من العُمر لأغامر مع مجانين كهؤلاء... لا بدَّ لي من العودة قبل أن يفتقدني

الشرطي الذي لا يزال نصفه يحضن بندقيته بلا صمّام أمان.

الخاتمة

معظم ما جرى هنا، لنا الحق في أن نقول عنه إنه غير معقول، تُرى أليست هذه هي الكلمة المناسبة التي لا تسيء إلى أحد؟.

أنا وخضير ميري
والحرب والجنون

شهادة بقلم الدكتور: باهر سامي بطي

يخيّـل إليَّ قبـل كل شيء وأنـا أعـاود التذكـير بما حـدث أن هناك فاصلـين لذات الموضوع، أحدهما زماني والآخـر مكاني، الأول حمل الكارثـة خلال أربعين يومـاً من القصف الوحشي على كل معالم حياة الإنسـان العراقـي، الذي أودى بحيـاة أكثر من أربعمائـة مريض من مرضانا في مستشفى الرشاد للأمراض النفسية والعقلية.

الفاصل الآخر هو جغرافية خمسة أمتار منعت الصاروخ الأعمى الذي سقط على المستشفى في ليلة ٩ شباط من التسبّب بكارثة دموية كان من الممكن أن تكون أكبر من كارثة ملجأ العامرية.

ومـع ذلـك ما الفرق بـين أن يموت البـشر موتـاً جماعيًّا في لحظة واحـدة، أو أن يموتوا فرداً فرداً خلال أربعين يوماً؟. النتيجة واحدة وفوائدها نشوة لمدمني البترول ودم الأبرياء ودموعهم.

في مستشـفى المجانـين يتوحـد الزمـان والمـكان، الأنـا والآخر، الـكلام والصمـت، والمجنون هـو دائماً في حالة بـراءة، والحرب على الأبرياء هي أبشع أنواع الحرب في كل زمان ومكان.

على أرض الشـماعية في الزاوية الشـمالية الشرقية من مدينة بغداد تجمّـع ألـف وخمسـمائة مريض عقلي في مستشـفى الرشـاد للأمراض النفسـية والعقليـة معزولـين عـن أهلهـم ومنفرديـن بمجتمعهم لا يشاركهم فيه سوى الأطباء ومساعديهم.

وكان كل شيء هادئاً بالنسـبة لهم حتى بدأ قصف العدو الهمجي في السـاعة الثانيـة بعد منتصـف ليلة ١٦ / ١٧ من كانـون الثاني من

العام (١٩٩١)، لم يعُد الهدوء ممكناً، وبعد ست ساعات بدأت أصابع الحرب السوداء تتلمس طريقها إلينا.

إذ لم يصل الكثير من المنتسبين إلى المستشفى، وكان علينا نحن الأطباء المقيمين أن نتصرف ارتجالاً فنكسر دولاباً حديديًّا هنا لإخراج الأدوية، ونسأل عن وصول الأرزاق ومشاكل الطبخ هناك.

في الظهيرة اجتمعنا في دار الأطباء لإعادة تنظيم عملنا بعد أن عرفنا أن واجب الإدارة سيقع علينا، وبسذاجة المبتدئين تصورنا أننا نمسك بزمام الأمور. في البداية كان موت المريض يثير فينا الألم والانفعال.

ومع مرور الوقت صار الألم يكمن في تساؤلنا: كيف وأين سندفنهم؟. ومع انقطاع الماء والكهرباء، ومع كل ما كنا نحاول أن نعيد تنظيمه، فإن برد كانون القارس وشحة الطعام والماء الملوث الذي صرنا نحصل عليه من السواقي الملوثة.

كل هذه الحروب الصغيرة كانت تتغلب علينا، وامتلأت ثلاجة الموتى بالجثث، ولم تعُد سوى صندوق حديدي لعدم وجود الكهرباء اللازمة لحفظ الجثث. وذات مرة عبرت ماشياً أمام ثلاجة الموتى.

وانتبهت أن تحت قدمي سوائل كانت تسيل من تحت بوابتها الحديدية، وشعرت بالرعب وارتجف كياني كله لفكرة أنني أقف فوق أرواح مرضاي، ولم أملك سوى الصراخ في داخلي.

ماذا بعد أيها السفلة؟.

آلة الحرب كانت تريد إطفاء جذوة روح العراقيين، وفي مستشفانا هناك بقيت جذوتي مشتعلة وروحي فاعلة، وكان ذلك مع (خضير ميري) كمريض في ردهة (الهيثم)، الذي كنت قد تعرفت عليه قبل بداية الحرب ببضعة أشهر.

وتعرّفت على لغته الفصحى المميزة وأفكاره الفلسفية. وتفاصيل المرض الذي كان قد مضى وخلّف وراءه سؤاله الفلسفي الدائم...

ما العدم؟.

في البداية كنت ألتقي به بعد أوقات العمل، ثم صار اللقاء بين أوقات العمل، ومع مرور القصف صار اللقاء والعمل واحداً، فالبحث عن الوجود والعدم لم يعد مجرد تساؤل فلسفي، بل صار مسألة واقعٍ حيٍّ وملموسٍ نواجهه لنرتقي فوق الدمار القادم من (طائر البط الحديدي).

ونحن نراقب (حسيبًا) وهو يكافح من أجل البقاء، وبحثنا في كل شيء، وتخيلنا كل شيء. وتوقف القصف وابتعد العدوان، ولم تتوقف جذوة الحياة فينا، ها هو كتاب (أيام الجنون والعسل.... الحرب على مستشفى المجانين).

كتبه خضير ميري بعد أن أصبح كاتباً معروفاً، وأنا أكتب هذه الشهادة وأنا مدير للمستشفى الذي بدأت به. الكثير مما فكرنا به وتخيلناه صنعته أيدينا فانتصرنا على الحرب مرتين، مرة لأننا كنا فيها، ومرة لأننا نشهد عليها بعد تسع سنوات.

ونُذكِّر العالَمَ بما جرى دون أن نسمح لتلك الأحداث أن تطويها ملفات منظمة الصحة العالمية، التي سجلت هذه المأساة في حينها، ولم تفعل شيئاً لإيقافها أو الاحتجاج عليها.

وسيكون هذا الكتاب وثيقة عالمية تضاف إلى الوثائق التي سجلت عن الجرائم الوحشية للعدوان والحصار على شعبنا العراقي المجاهد.

الدكتور باهر سامي بطي

مدير مستشفى الرشاد للأمراض النفسية

بغداد - حزيران - ١٩٩٩

حكاياتٌ من الشَّماعيّة

تنويـه: أرتأت دار النشر أن يتـم دمج هذا الملحق مع الكتـاب كونه يمتـد لفترة مكـوث المؤلـف في المستشفى ويتناول حكايات ذات صلة بالكتاب الأول..

علمًا أن هذا الملحق طبع سابقا بنسخ محدودة.

لنضحك على الأحياء

لكي لا يسخر منا نحن الموتى

خضير ميري

الإهداء

إلى أسراء خليفة زوجتي

التي أول من قرأتني

كحكاية أولى من الشماعية

وإلى السيدة سميرة عبد الوهاب

التي احتفلت بجنوني

واحتفت به بجنون

قال سيبويه:

والجمهور باشتراط القصد فلا يسمى كلاماً ما نطق به النائم والساهي وما تحكيه الحيوانات المعلَّمة، وخالفه بعضهم فلم يشترطه، وسمى كل ذلك كلاماً واختاره أبو حيان..

الأشباه والنظائر.

الكتابة لغة ثانية لا أول لها ولا آخر
الأدب دائماً على حق
طالما لا يوجد هنالك من يقرؤه مرتين
أسمع الماء وأشرب الدم
هكذا نصبح أكثر
منك وأقل منهم أيها الحظ
مَنْ لا جدران له لا وطن له
فكيف نراه حرًّا
دونما قدم يخلفه
الأخطاء دائماً ممكنة
ولكن ليس ضمن المستحيل
الذي يقاتل بفوضاه
الحب دائماً ضد الملابس
التي ينبغي أن نرتديها
ضد الأبواب والنوافذ
التي ينبغي أن نمر من خلالها
من أجل عرس ومأتم
الأصبع البارز يتيه
إذا ما كانت جميع الأصابع مؤجلة

مساء الإسفنج

طارت القنبرة فوق الرؤوس، ولم تكن معافاة تماماً صحة هذا الجانب البعيد من العالم، جانب مصحة الرشاد، ولعل مروق قنبرة أو خطاف يفرد ذيله مثل إصبعين فتيَّين لجندي مقاتل ينذر بانهيار العقول التي ما زالت تمسكها كلَّابة الكتفين.

حينها التفت إلى محروس وشخرت عليه، ففرَّ هارباً يطرق طاسته البلاستيكية بالجدران القديمة المخربشة، القليلة الطلاء. وقفت جماعة في الجانب الأيسر من الردهة الداخلية.

حينها بدأ مساء الإسفنج في ركن غرفتي المكشوفة النوافذ، وليس مسموحاً لي أن أغلق باب الحديد الأصلع المهزوم، وكان عليَّ استدراج حمّاد النزيل الجديد الذي وصل قبل ثلاثة أيام إلى هنا.

ولا أستطيع أن أنكر مدى وسامته وحسن وجهه الأنثوي المدور قليلاً، ثم طعم ضحكته الرائعة الممطوطة، وصوت سعاله المميز القصير والمشاكس. وحين دعوته إلى جلسة شاي عندي لم ينس أن يقول لي:

- وماذا عَن «الآرتين»؟

فطمأنته وأخبرته بأنها لا تنقصني. قرفص بساقيه قرب السخان الكهربائي وأطبق على كاسة الشاي بكفيه الناعمتين وأخذ يراشف استكانة الشاي ويراقص ملعقته ويهزها كما لو كان طبيباً محترفاً يُحسن تحريك مبضعه الحديدي بمهارة.

وأجابني:

- نعم فعلتها ولم يكن ذلك صعباً.

ولم أتح له مهرباً من أن يقصها لي، فأضفت له حبة «آرتين» أخرى مذكِّراً إياه:

- ولكن هذا حرام.

لم يكن للحرام دخل في الموضوع... لقد كانت مُطلّقة وجاءت إلينا مخذولة ومترددة، وتقوَّلَ عليها زوجها ولم نصدِّقْه بالطبع، إلا أنني فكرت وتخيلت وقررت حينها، وعرفت ماذا تفعل هذه الـــــــ.

ليكن ذلك هو ليل الإسفنج ومساءه السعيد في طعمه الحامضي الغريب والمثير... فالمرء ليس بحاجة إلى دراية كبيرة لكي يتابع قطة سهلة، وذكرته بأنه، كما يبدو، يقرأ كثيراً.

فردّ عليَّ وهو يتمنطق ويقي عينيه ليقاوم عداوة السخان الكهربائي الغاضب المحمرِّ الشفتين. ليس كل شيء فقط تلك المثيرة واللازمة منها، فسألته:

- وماذا عنها.... ها.... هل كانت راغبة؟

- في بادئ الأمر، كان الأمر عابراً، كنت أعود في آخر الليل مصطنعاً الثمالة، فتفتح هي

الباب لي وأشم رائحة النعاس، ذراعاها مكشوفتان وثوبها المنزلي يتجرد عنها، أرمي نفسي

عليها، لأحس ذلك الشيء المدبب، المكوّر، ثم تتعثر هي فيّ

وتجعلني أتكئ عليها. وتقودني

لاهثة ومنزعجة في الممر الجانبي لفناء المنزل. وهي تتكتم عليّ لئلا يضبطني والدي

العسكري، القاسي، المجنون وتدخلني غرفة الضيوف، ثم تكومني أرضاً وتذهب لتفرش لي

فراشاً وغطاءً، ثم تجردني من حذائي وتدحرجني مثل حاجة منزلية إلى فراشي المبسوط

أرضاً، وتطبق الباب خلفها وتتركني أمضي إلى الخطاف الذي يمرق غالباً وهو يعرف

حتماً، ماذا أريد.

- وماذا كنت تريد؟.

سألته

- لست أدري بعد، الأمر أشبه بلعبة ليلية ليست متقنة تماماً، وكنت غالباً ما أجهض روعتها في

الحمّام في ركنٍ بارد ورطب حين أطبق على نفسي وأهزّها عشرات المرات لأهمد وأرتاح

قليلاً.

حينها جاءت لي نظرية الحمّام، وفكرت بدوامها هي طوال ساعة بعد الظهر. هنا تماماً في هذا الفراغ المربع المضاء جيداً،

تدخـل هي إلى هنا وتطيـل مكوثها، وانتبهـت إلى الباب الحديدي المتآكل وصنعت ثقباً صغيراً فيه وشـعرت بأني حصلت على العالم كله.

وكان والدي العسكري، الآمر، المترفع قد ذهب إلى عربة الحرب وطـال غيابـه. ولم يطل غيـاب الظهـيرة في صيف ذلـك العام، حين دخلـت هـي إلى حمامها المعتـاد الآمن. وقفـزت إلى مرصدي ورأيت ذلك الأبيض المبذول منتصباً ومتروكاً.

ذلك الطول الآمر الذي يستدير من الخلف ويتكوّر، ثم إنه يرقص حـرًّا بعض الشيء قبـل أن يلعقه الماء وتدغدغـه قطعة من الصابون، كان الشَّعرُ منثوراً وهائجاً وهو يخربش جدار النهدين.

وانتصبـت حواسي كلهـا وفحّت عليَّ حين ذهـب الجمال كله إلى ذلـك الركـن، البعيد، البـارد والرطب، ركني الدائـم، ليصبح الحلم مشـتركاً وحسّاسـاً أكثـر ممـا يجب. وهكـذا قاطعتـه لا أعـرف لماذا، لأسأله ربما أو لأطرد الارتباك عني.

ألم تشعر هي بشيء ما تخافه منك؟

ألم تبالِ أو تحدس أمراً؟

فأجابني وهو يشعر بالإثارة:

– ليـس بعـد، لقـد كنـت في نظرهـا صغـيراً ومـا زلـت في الثانية والعشرين من عمري.

كانـت والـدتي مريضة دائـماً، تنام طـوال الليل والنهـار وتبصق

باستمرار في علبة صفيح مجاورة وتشتم الحرب، ولم تكن تحب والدي ذلك الذي غاب.

ثم إني كنت حذراً رغم كل شيء وأتشاغل بالقراءة عندما كانت هي (المطلقة) تنسحب وتمسح بلاط المنزل، وأعرف بحذر الفأرة متى أحصل على قطعة الجبن الصلدة من فتحة الصدر، السمين، المهجور الذي ينتظر. إلا أنني لم أقف مكتوف اليدين، حيث كان يجب عليَّ أن أعمل.

وفكرت بـ حاتم المرزوق بائع الصحف والمجلات، وطلبت منه صوراً، بعض الصور وحصلت عليها، لم أكن أعرف ماذا أفعل بها، صور قديمة، مكشوفة ولاذعة.. وذات نهار،

أعرف أنها ستعمل فيه على تنظيف غرفتي الكائنة في سطح المنزل، التي لا أنام فيها لأنها حارة جدًّا ولا مروحة فيها.... ودسست الصور تحت الأريكة الخشبية، وجعلت حافاتها ظاهرة بعض الشيء وغبت قليلاً في الفناء الخلفي.

حيث سمعتها تصعد سلّم المنزل، تعقبتها بعد حين ومشيت بلصوصية شديدة بمحاذاة جدار غرفتي ونظرت من النافذة من حافتها البعيدة، وشاهدتها تجلس على الأريكة وقد سحبت صورة وراحت تنظر فيها بارتباك شديد.

ثم دسّتها تحت الأريكة ونهضت تحمل مكنستها بيدها وهي تشد ثوبها إلى وسطها، وحين أبصرتها تريد الخروج، استدرت سريعاً

لأدخـل برميلا جانبيًّا مخصصا لحفظ العُـدد اليدوية وبعض الأحذية العتيقة.

حـين هبطت سـلّم المنـزل، وكانت تنـادي عليّ بصـوت مفتعل، وبحثت عني قليلا ثم عادت، سـمعت خطواتها على السـلّم، وكنت أرتجف كـما لو كنتُ محموماً، أمهلتها بعـض الوقت، ثم خرجت من البرميل.

كان سـطح المنزل صامتاً، ولاحظت أنها قد أطبقت الباب، ومن حافـة النافـذة تطلعت نحوهـا، كانت قد أخرجـت الصور من تحت الأريكـة وتربعت أرضا، ثـم نشرت الصور عـلى الأرض، وأخذت تنظر بتركيز شديد وقد كشفت عن ساقيها.

ثـم نهضت ماسـكة بإحـدى الصـور ثم صعـدت عـلى الأريكة ونامـت على ظهرها وتركت دشداشـتها تنحسر عـن فخذيها، حينها دخلت أنا بهدوء بعد أن فتحت الباب دون أن أجعله يطلق صوتاً.

انقلـب العـالم كله إلى عـزاء، وصرخـت صرخـات مكتومة، ثم سـقطت تحت قدمي ضعيفة، واهية، عضتني مـرات عديدة في أذني، ثـم ارتعشـت وأنا ألحسُ الدمـوع من على خديهـا، وهربت من تحتي وهربـت أنا مـن المنزل، لأعود بعد أسـبوع لأجدهـا مريضة، طريحة الفراش.

عـاد أبي أخيراً، عاد مخذولاً ولا غنائـم لديه، وأول خطوة إيجابية صنعها لنا باتجاه المستقبل هي إقامة عزاء عشـائري فاخر لأمي التي

ماتــت، وبعــد حــين من الوقــت لاحظت شــحوب أختــي وصعوبة مشيها ونوبات التقيؤ تراودها.

وجاء الخطاف سريعاً وصرخ في رأسي وحملني إلى هنا كما لو كنت قشة واهية، وأنا ما زلت قشة أنتظر المزيد من العواصف لاتقلّب فيها عسى أن أنسى أنني عشت حتى ولو لمرة واحدة.

طيّ الكتمان

لم أشب عن الطوق بعد، على الرغم من أنني أصبحت مدرساً جامعيًّا. ربما يصلح هذا النوع من الكلمات مدخلاً مناسباً لقصة كلاسيكية، هكذا فكّر الطبيب (حمدان) وهو الصديق المقرّب والتلميذ المعجب بالدكتور (سليمان).

ذاك الذي يرقد في السرير المجاور، وقد نالت منه الحمّى في مصحة (ابن رشد) للعلاج من الإدمان، حيث فتح الدكتور (سليمان) عينيه وقال له هاذياً بعض الشيء:

- نعم، صدقني لم أكن أشعر بالكاد بأني رجل مناسب، ولم يكن لقبي العِلمي أكثر من مقود

حصان، ولعل عليَّ أن لا أقول ذلك.

ثم أخذ إغفاءة قليلة، وشعر الطبيب حمدان بالضيق وهو يسمع الصمت يخيم على الجناح العِلوي المخصص لعلاج المتَّهمين بالإدمان وأصحاب الجنح والجرائم التي ترتكب، وتصنّف كونها فوق طاقة القانون.

النافذة الداخلية للردهة ترسم ملامح ذلك الشرطي جيداً، الذي يتوهم غالباً أن ذبابة تحلّق قرب شاربيه، فيهش عليها بيديه. فكّر الطبيب حمدان بأن الدكتور سليمان قد غطّ في نوم عميق، وقد عضَّ بأسنانه الصفراء على حافة البطانية، التي خيّل للطبيب حمدان أنه سمعها تتكسر.

إلا أن عيناً واحدة نطّت من جفنها ليقول الدكتور سليمان:

- لا.. لست نائماً، كما إنني لست مجنوناً... وذلك الأعمى لا يعرفني جيداً.

- أيّ أعمى...... أيها السيد؟.

هكذا أجابته الباحثة الاجتماعية، وهي تعنى بفتح ملف أنيق ومناسب لهذا الدكتور الجماعي الذي وصل حديثاً يحرسه شرطي قروي كان يناديه كلما أراد، بلقب «الدختور»، هكذا أجاب الشرطي:

- الدختور كان مع الأعمى في الفندغ.... المشوهوب أي المشبوه.

وقرص في عينه اليسرى متصوراً أنه نال استحساناً، إلا أن الباحثة الاجتماعية صرخت به وطلبت منه الوقوف خارج الغرفة.

- على مسؤوليتك؟

- على مسؤوليتي.

وسألت الباحثة الاجتماعية الدكتور سليمان عن سرّ علاقته بذلك الأعمى، عندها صرخ بها عالياً وقلب الملف أمامها، وانهال عليه الشرطي ضرباً حتى صيره في حالة يرثى لها.

لا يعتني به سوى الطبيب حمدان الذي درس على يديه المنطق والفلسفة، في تلك الجامعة البعيدة التي بادلها هو بقنينة خمرة رخيصة في أحد بارات شارع أبي نؤاس، وشعر الدكتور سليمان بضيق شديد ورغب أن يعرف ما إذا كانت زوجته الدكتورة موجودة معهم الآن.

ألم يصل إليها الخبر الصاعق؟، وأي خبر، إلا أنه لم يفعل ولم يجرؤ

على السؤال عن ذلك. وأخذ يتكلم كما لو أنه للتو يتعلم الكلام ولا يتقنه جيداً. هذا صحيح، فأنا أرغب بالمشي في كل حين وأحب كل ما هو محكوم بالمشي على قدميه.

البط مثلاً بركضته الثقيلة، الدجاج والطيور الداجنة، كذلك التي تتخذ من أجنحتها مجرد زينة مثل ربطة حضارية مفروشة قليلاً، مثل موضة شائعة، الحمير، لا وهي واقفة بل وهي تمشي على أربع.

أن تكون أنت نفسك دابّة، لا حول لك ولا قوة إلا أن شرفي الجامعي وكثرة النظريات المعرفية الحديثة لا تجعلني أحيا كما أريد. كنت أصل للبيت متأخراً وغالبا ما تغالطني الساعة الجدارية في غرفة الضيوف.

وتقول لي زوجتي، إنها العاشرة مساءً، سأدخل لأنام لدي محاضرات مبكرة غداً. وأدخل غرفتي وآخذ بالشرب.... أشرب دائماً المشروبات التي لا رائحة لها، كالجن والويسكي والبيرة المحلية.

إلا أنني لم أكن سيِّئ السمعة تماما مثل كلب بورجوازي صغير في حضن سيدة فاضلة رفيعة المستوى يعي دوره جيدا داخل حفلة عامة.

فما الذي أنا فيه؟.

تأخذني رهبة الموقف وظلام رأسي واضح المعالم ولا ضوء فيه منذ أن فكرت أن أكون تماماً دونما أي تعيين، دونما اسم أو أسميه شيئاً ما مخالفًا وغريبًا وغامضًا مثل حشوة داخل ضرس أو طية في بنطال.

وكان علـيَّ أن أمشي مرة أخرى في الشـوارع والأزقة والأسـواق وأدخـل زقاقـاً يضيق كلما خطـوت فيه أكثر ولمحت مقهىً شـعبيًّا في زاوية منعطف خيّل إليَّ أنه سيتداعى، والمقهى عبارة عن جحر عمقي داخل جدار محنط.

ولمحـت المقهى يكثر فيه الدخان وفي زواياه ما زالت العناكب في عصرها الذهبي، ونزعت ربطة عنقي تحرجاً وأخرجت ياقة قميصي، وجاءني رجل أعرج يمتلك وجهاً ممسوحاً ولا ملامح واقعية فيه.

ووضع أمامي على طاولة مجازية مصنوعة بأرجل خشـبية لاصقة ببعضها البعض ومطلية من قفاها بالغبار، ثم أشار إلى ذلك الأعمى، ثم تدارك ليصرخ له كما لو كان قِرداً يتكلم:

- هيه...... هوظ....... هيه.

فتوجـه الأعمى ببطء السـلحفاة إلى حيث أجلس.... كان رجلاً ضخـماً يـترك بطنه فراغاً طويـلاً قبل أن يصافح السـاقين وصافحني بيد إسفنجية دافئة، ثم طلب أن يتحسس ذقني، وكانت دائمة حليقة كفاية، فلم أمانع، وهمس لي بصوت مبحوح قليلاً:

- سوف تقودني إلى ذلك الفندق المجاور يا أسامة.

وعرفت بأنه يعني شخصاً آخر، وأن أسامة هذا هو بالتأكيد ليس أنا، وشـعرت بحرقـة خفيفة في معدتي وشـيئاً من السـهو والارتباك حيث قبض عليّ بكفه الغليظة المستعملة كثيراً.

وأخـذت أقـوده دون أن أعرف إلى أين، إلا أنه أرشـدني إلى ذلك

الفنـدق، وصعدنـا إلى الطابق الأول، وانتهينـا إلى غرفة ضيقة بسرير حديدي واحد. ودخـل علينا صبي صغير يخبئ تحت أبطه قنينة خمرة بسدّادات لا تمت إليها بصلة.

وفرشـنا على أرضية الغرفة الضيقة وشربنا بكأس واحدة، وكان الأعمـى يضايقنـي بيديـه الطويلتـين ويقبض عـلى رقبتـي ويجذبني معـه مع كل مزحة يطلقهـا. وأخذ يغني بصوت أجـش، يغني مقاماً عراقيًّا أصيلاً، ويدوزن صوته المبحوح المؤثر بـــــــ آه طويلة بين آونةٍ وأخرى.

وشـعرت بالثمالـة وجعلـت جسـدي ينقـاد قليـلاً وأنـا أنظر إلى شـحمتَي عينيه، وشـعرت أن هذه المجهولية تشـجعني، وهو يهمس لي: ((يا أسـامة ساعدني)). وشعرت بخفة لا مثيل لها وراقبت نفسي بمرآة شخص آخر.

شـخص رشـيق شـبه عارٍ يتمرغ على أرضية الغرفة ويدع الجمر يشـتعل فيّ، وطقت عظام ظهري ودوختني الحركات ورغوة الخمرة في رأسي وطعـم اللحـم الحامـض على شـفتي، وأنا بـدَوري متكوما تارة، ومتكوراً تارة أخرى.

أبعـد ذلك الـشيء الغامض عني وأكافح ضد أن أذهب إلى أبعد، ودوائـر حمـر وزرق وصفـر تـدور في جفـوني... ونبحـت كلاب في ذاكرتي وضاقت ذرعاً بي الأفكار والكتب المدرسية....

وكان عليَّ منذ البداية أن لا أنسى بأني أسامة.

- ولكنك الدكتور سليمان.

قاطعته الباحثة الاجتماعية وقد كررت له:

- الدكتور سليمان.

ودخلت زوجته لتقول للباحثة الاجتماعية وبلهجة رسمية:

- أنا زوجة أسامة رشيد عبد.

ولاحظت الباحثة الاجتماعية، أن المرأة واثقة من نفسها دونما شك، ولم يحدث هناك شك بعد ذلك؟.

رغبة الآبار السحرية

الجمال ليس   امرأة الجمال سرير

والظلام حليف لا بدَّ منه لجني القصائد

وزرع الخدود

يا ورد   يا ورد

هكذا كل مرة، كل مساء يخفت اللطم فيه والأنفاس والأشرعة ويهدأ طائر الجنون من صيحاته التي لا ذكر لها حين تشحذ الحرب همتها، وتُطلق الريح سهواً في ملعب القافلة ويصرخ أبو الورد علينا:

يا ورد   يا ورد

ونعرف أن النهار قد هُدر دمه، وأن الضوء ظلّ طريقه وابتعد هائماً، ويصبح الماء حلمنا السرمدي ونلحس أحواض الموزائيك ونرضع صنابير الماء التي جفّ ضرعها.

ويفتش أبو الورد عنّا في ردهة الشاي التي هجرت في شارع جانبي محفوفٍ بالأشجار وملغومٍ بالفئران العجولة في جيوب الغرفة المزينة بالقضبان تحت أسرّة الإسفنج، وفي علب السجائر المدعوكة والملقاة أرضاً كذكرى عتيقة... في الحمّامات الخلفية ألقينا مرسانا والماء يصغي ولا يجيب

يا ورد

هذه الحرب لا تموت ولا تمرض ولا تنام، ونحن كذلك لا ننام، قالها فاضل وانسحب من ممر جانبي قاصداً تلك القاعة الداخلية

حيث القضبان فيها أكثر وأوسع انتشاراً. نظر نظرة حبيسة، وطرق جبينه على أصابع القضبان وأخذ شيئاً من صعقتها الباردة، الساكنة.

وأزّت خفافيش خارجاً وطار صوابها والكلاب تنبح خائفة، وقد بحّ صوتها ووهنت عزيمتها واقترب منه أبو الورد، وقال بصوت مرح

لا عليك فإني أغني

فغنِّ لأني أغني

وغنت الخفافيش والحشرات المتناومة، وغنت الطيور مخدوعة بالبرق الذي سرق النهار قبل أوانه وسخر من طول قدميه، العصافير الحديدية تتشظى في الفجر المجبور القادم.

والقضبان لا نعي لها، وحسيس الحشّاش يطوي غريزته الذابلة، ويُعيد مضغ جلدة شفتيه، ويضرب أبو الورد على عجيزته، أبو الورد، ويفر هارباً مهتدياً بحبال الفجر الذي آثرَ أن يمط صبحاً راكداً فوقه الدخان وتحت قدميه الرماد، عالقاً مثل قوس قديم.

وأبو الورد يصرخ مع أول بوابة حديدية تفتح ويُسمع صراخها:

يا ورد

يا ورد

إياك والنسيان

يا ورد فلا ذاكرة لنا

ويـأتي إلينا جبار المعاون ويصفُّنا صفًّـا اثنين اثنين، يصفُّنا ويزمجر علينـا، وقد أخذته عزة لا نفهمها وعنفٌ لسـنا نعـرف..... ما هو؟. وطرقنا الحديد، طرقناه بعنف طاسـاتنا البلاسـتيكية الواهية، وليس هـذا بعنف مشـابه لهذا الذي نحن فيـه، وقال المعـاون جبار بصوت مسموع لآخر

إنهم عشرة

وجابـه الآخـر على صلعـه الظاهر للعيـان، وقلّـت الكلمات على لسانه الذي يتأتىء و د كان لا لا ليس ز دينا زغـــــــــر

ثـلاث مسـاح. أي ثلاثـة معاول، حسـب فهمي. سـنتدبر الأمر وإلا متنـا عطشـاً. وفتحت البوابـات الثلاث أمامنـا، البوابة الكبيرة بوجههـا الذكوري المليء بالصـدأ والجروح، البوابـة الثانوية في الممر البعيد المجاور، ثم البوابة الأخيرة، التي يسـميها محمد الشاعر (بوابة الحياة).

التـي كان يحلم بالخروج من بـين ذراعيها حيًّا يرزق، ولكنَّ خطأً مطبعيًّـا قد حدث، فأُخـرج ملفوفاً ببطانيته القـذرة، وقد احتفظ أبو الورد بدفاتر أشعاره، وأخذ يحفظ منها.

يا ورد

ما هو العطر فيك

ودمك الماء

ولونك يفيض على لسانك

وعنقك جارح

لكل مجروح

يا ورد

لم يكـن منظراً سـارًّا أن نوثَـق من أقدامنا نحن الرجـال يُصاحبنا ضوء الشـمس الباهت المشـوّه بالغبار والبارود، وسِرنـا متعثرين في الشـارع الإسـفلتي الذي يتوسـط الأشـجار وهي مخربة ومقطَّعة بلا انتظام.

ثم انحرفنا ودخلنا أرضاً ترابية، وقيل لنا بعد أن جعلوا منّا دائرة هلاميـة غـير متجانسـة الملابس والأشـكال، ووزعت ثلاثـة معاول وعـصيٌّ مدببـةٌ وسـكاكين صغـيرة وغرزناهـا في أرض ترابية صلدة بعـض الـشيء، فاحت منهـا رائحة تـراب معفّـر لمقبرة ربما أو لشـبه مقبرة، وكان أبو الورد يضحك منّا ويقول

أيها الورد

كم قردٍ رأيت

ولم تبتسم

ولم تبتسـم حـين صنعنا بئرنـا الأولى، ثم انتصـف النهار وصنعنا بئرنا الثانية. بطوننا فارغة ورؤوسنا التي لا ثقل فيها تتكئ على كتفين هزيلتين، وسـقط منّا ثلاثة أرضاً، وأحدهم تم ترقيمه في عداد الموتى حين مد لسانه خارجاً، عطس ومات.

وسمعت صرخة أبي الورد والتفت خلفي وعرفت أنه قد سقط هناك، فصرخت بالمعاون جبار، ساعده، لقد سقط منا أبو الورد في البئر، فلطمني على فمي ومشى أمامنا يجر حبلنا الغليظ بيديه.

يا ورد................. يا ورد

الضحك على الأحياء
في مستشفى الشّمّاعيّة

ساعة الصفر يسمع رنينها بعد أن فتحت البوابة الحديدية، وعاشت الردهة الداخلية نهاراً آخر أفرغ من محتوياته اليومية، الماء والرغيف، فجفّف إبراهيم حلقهُ من مرقٍ بائت وبصق على الجدار، فسالت بصقته لتكون نصف وجه رجل يسيل من قفاه.

وهمس في أذني:

- انظرْ إلى وجه ذلك الشرطي.

وكان وجهه ممسوحاً لا حياة فيه، ثم قال لي:

- اصغِ إلى نباح الكلاب التي جبنتها الحرب.

وقلت له:

- وماذا في ذلك؟

فلم يجب إبراهيم، وراح يعدُّ على أصابعه الكلمات التالية: الشجاعة، الشماتة، الخريف المهذار، المتواضع، نزوة التبول الأولى داخل الفراش، حين تكون الأشباح أكبر من ستارة نافذة الغرفة، صوت فأرة في جدارنا الطابوقي، المريض الذي يسعل دائماً، وأجبته أنا بدَوري

- وماذا في ذلك؟.

فهمس إبراهيم في أذني قائلاً

- الكلمات لشدّة حرصها على أن تكون معقولة تمنع الطوفان، القادم، الذي لا بدَّ منه لكي نتكلم.

فأجبته وقد أرحت قفاي على مسند الحائط

- حسناً فلنتكلم إذاً.

صمت إبراهيم وسمح لعينيه أن تتناوما، ثم تكلم دون أن يفتح عينيه، كل ما بقي لدينا هو تسول الهواء، لأننا بدلاً من أن نمشي وندجن أقدامنا، ما كان علينا سوى أن نطير وبذلك ينتهي كل شيء.

أو لعلنا نبدأ بداية أخرى، واقترب منّا الشرطي الذي لا وجه له، وسمعناه يتنفس بصوتٍ عالٍ وأشار إلينا أن نتفرق فوراً، فليس مسموحا أن يجتمع أحدنا مع آخر، سيكون هو أكثر من اثنين أو ثلاثة، وتفرقنا أنا وإبراهيم ونحن نبتسم لتلك الجثة الطريفة التي وقفت قبالتنا وقالت لنا شيئاً ما نسيناه.

ما من سعادة بحاجة إلى مزيد من السُكر، ما من رجل أفضل من إبراهيم حين يرغب أن يتنصل عن أحكامه الخاصة بالحب والعواطف وتدمير القلوب، وحين أخبرني كيف أخضعه، عندما كان، صبيًّا هؤلاء الكبار في ساحة مشغل لسمكرة السيارات.

كان يعمل صبيًّا ما زال يخطئ في حفظ أرقام المفكات الحديدية حين يُطالب بجلبها بعجالة.... حينما دلّلوه قليلًا في الگراج الخلفي ونزعوا له سرواله.

كنت أشعر غالباً أن جسدي معقول كفاية وأبيض ولا شَعْرَ فيه، لم يكن ذلك الأمر يخيفني، إلا أنني شاهدت أنصاف أجساد بشعة، أوراماً سمراء داكنة حكّت أسفلي وبصقت فيَّ، وتذوقت القذارة

مبكراً، ونقص عقلي.

ومَن ينقص عقله مبكراً لا بدَّ أن يحمل الفانوس، وأشعلت الفانوس في غرفة القراءة لكي أنسى أن الإنسان يتعلّم لغة العالَم لينسى مصيره الصامت، الأخرس الذي لا يتكلم مطلقاً.

وهكذا.... سخرت من الكتب وذهبت أستعيد في أنفي رائحة القذارة التي كانت تسيطر عليَّ وتجعلني أكثر عناية بالموت البطيء والنعاس المتآمر.... وذلك الجُرح الذي فيَّ يكبر ولا يشبع.

- وماذا بعد ذلك؟.

هكذا سألته ولم يبالِ، فلم يفعل أكثر من أن يخبرني. صيرت نفسي فتىً مناسباً وطيعاً لآخر، كان رجلاً خليجيًّا يسافر غالباً ويعود محملاً بـــ اللآلىء والمحار والردى. كنت أحرس له منزله الواسع، المرهوب طوال غيابه، وحين يعود.... أكفُّ عن حراستي وأهيِّئ نفسي لذلك الشيء الذي ينبغي عليَّ أن أكونه.

وما هو ذلك الشيء الذي ينبغي عليَّ أن أكونه؟.

كنت أزرع نفسي قليلاً في غرفة الحمّام وأزين شفتي وأخرج عليه، راقصاً ولينا ومنهوباً. لم يكن يمكنني، أنا المتجدد، الفتي، الذي يربي جسده ويعتاش عليه حين فاجأني ذات ليلة، وسمح لآخرين المجيء إلى الوليمة فقتلته........... وطار صوابي.

لم أعرف حقًّا كيف استطاع إبراهيم أن يختفي في اليوم التالي..... سألني الشرطي بصوت لا يخلو من رجاء:

- أجبني يا حامد فأنت حتماً تعرف أين ذهب إبراهيم؟

إلا أنني لم أتذكر مَن هو إبراهيم، وشغلني عصفورٌ وقح ومشاكس كان يعبث ببقايا نبتة ظلّت موضوعة خارج غرفة المراقبة. وابتسم لي العصفور وطار، ولم أشأ أن أطير خلفه.

وعند حلول عصر ذلك اليوم، جاء الشرطي وسأل عني، ثم قادني من رسغي إلى خارج الردهة، كان الهواء جافاً، أسمعه يتنفس في رئة الأشجار، ثم فتح الباب الخشبي لغرفة مربعة، غرفة عتيقة بلا ملامح ودونها طلاء.

وشاهدت أكداساً من الجثث، وسألني الشرطي أن لا وقت لدينا، عليك أن تتعرف في هذه الجثث على إبراهيم. ثم صفق الباب خلفه وتركني وحيداً.... خلفي بابٌ لا فجوة فيه وقبالتي جثثٌ لا أعرف عددها، ولا بدَّ أن يكون إبراهيم حتماً.

وناديت عليه بصوتٍ ضعيف، ومتهدل، صوت لا روح فيها: (إبراهيم، أين أنت يا إبراهيم؟).

وجاءني صمتٌ مسوّر برائحة لا مثيل لها، صمت نائم، لزج، لعله صمت حيواني لا عقل فيه ورحت أغنّي بأسىً:

إبراهيم

إبراهيم، يا ليل، يا عين

يا ليل

يا حبيبي

وجاءني صوتٌ أعرفه، من خلف الثلث الأخير من أكداس الجثث عند الزاوية الملاصقة لجهاز التبريد الهامد هو الآخر كجثة معدنية.

- أنا هنا يا حامد، تشجع وتعال.

فخطوت نحوه... ورأيته نائماً كجثة وهو عارٍ بين جثتين تاركاً فراغاً ضيقا بينهما، ثم همس لي:

- هيا، اخلع ملابسك وتعال هنا، اندسَّ معي، وبهذه الطريقة سنعود أحراراً.

فاجبته

- حقاً؟.

ثم سرعان ما خلعت دشداشتي الثقيلة والعتيقة والمدعوكة، واندسست بجواره، وبعد قليل سمعت مزلاج الباب يُفتح، ثم صوت الشرطي الآمر، المتجبر يصرخ

- أين أنتَ يا إبراهيم؟

ولاحظت إبراهيم يقفز من مكانه ليقول للشرطي

- ها أنذا؟.

وسمعت الشرطي يسأله بأدبٍ جم

- ترى هل تعرفت على جثة زميلك؟

وما أن تحركت من مكاني لأصحّح الذي وقع عليَّ، حتى سمعت الباب يغلـق خلف الشرطي وإبراهيم صديقي في هذه المصحة يخرج معـه سريعاً، ورحت أطرق على الباب، وأطـرق وأنا أذكّر الشرطي، بأني أنا الذي استعان به للحصول على جثة إبراهيم وليس العكس.

ثـم فكـرت بما قالـه لي إبراهيم عـن الحرية، ولأنّي لم أسـمع بهذه المفـردة من قبل، قلت لعل الحصول على الحرية، ولكي نكون أحراراً لا بـدَّ أن يكون هناك خطأ ما، أو سـوء فهم يسـببه شرطي بلا وجه، ولا بـدَّ بعـد ذلك أن نطرق البـاب ونطرق ونحن نعـرف أنه لا أحد هناك يسمع.

هذا النوع التافه من الضجيج داخل ثلاجة الموتى.

منتدى نشارة الخشب

بإمكانك أن تدعوني بـــ (خرقة المسح) فلا يحزنني ذلك ولا يزعجني، فأنا ابن حرام سرقت أمي في عز الظهيرة، كسرت خزانتها الخشبية التي من النوع الأثري القديم، بينما كانت هي نائمة في حفظ الله.

ثـم ذهبت النقـود إلى قوّاد محـترف.... وبددت النقود في نشـارة الخشب، وهكذا أصبحت محترفاً.

- محترفاً بماذا؟

- بكل ما يسـاعد على أن أكون خرقة مسـح، وليس مسؤولاً أمام أحد... ولست مطالباً بالكلام.

سـمعنا المطر يسقط على رؤوس الأشـجار، ورائحة التراب تبلل شعيرات أنفي في أمطار آذار اللذيذة، الواعدة... حين فكرت به مراراً وأنا أتمشـى إلى جواره في الفسحة الخلفية للردهة الداخلية يمشي وله عرج خفيف في قدمه اليسرى.

وأسـمع طبة قدمه اليمنى تترك صدىً مميزا على الإسمنت القليل الـذي يطبع هذا الشـارع حين أوقفني بذراعه كـما لو كانت مصنوعة من المطاط، ليقول لي: لا أريدك أن تظنني قاتلاً.

ونسيت أن أقول له ليس لي أي دخل في أمر كهذا، فالعدالة قابلة لقانـون الإزاحة حيث تتسـاوى كمية المـاء الذي تزيحه بطـة من إناء مخصص للعوم مع الماء المزاح خارج الإناء.

وقـال لي، لم أكن صادقـاً إلا بعد أن.... انتهيت مما لدي من مهمة

تخريب نفسي.. ولا أدري أية نفس يعني.

أهي تلك النفس التي صيرته مدمناً لأنهار بعشيقة؟.

إذا كنت تريد أن أروي لك الحقيقة كاملة. فإنها لن تكون أكثر من جثة نسيت في منتدى لنشارة الخشب. جثة قمت باستغلالها أبشع استغلال.

فرددت عليه مبهوراً

- جثة، يعني جثة حقًّا!.

فأجابني لكي يواصل المشي بعد قليل.

- بالطبع، ولِمَ لا، مَن مِنَّا لم يسرق ميتاً من جثته؟.

- يسرق؟.

- يسرق لا فرق بمعنى أن يعيش.

- وهل كنت، تحيا، متطفلاً على جثة؟.

- هذا صحيح، ولكنها جثة تحيا وتتنفس في نشارة الخشب، والمكان ليس من الصعب العثور

عليه، بإمكانك أن تصل إليه عبر شارع الرشيد، أتعرف ذلك المصرف القديم إلى جوار

الأسواق المركزية؟.

وتظاهرت بأني أعرفه.

وأضاف

- نعـم.. خلفه تماماً هنالك ممر فرعي ضيق يـؤدي بك إلى درب حجري، ثم يسلمك إلى مبنى

واسـع، لا شيء مميـز فيـه سـوى بابه الخشـبي المنهـك بالأعمدة والمثبت بمسامير عملاقة، ولا

تسـتطيع دفعـه كـما هـو الحـال إزاء أي باب مخصـص لذلك، بل عليك أن تخلع أخلاقك وتتسلل

مثـل ثعلب عجـول إلى بهو داخلي مرفوع السـقف وغير مبلط في ممشاه الداخلي هنالك تعثر

على ورشة لنشارة الخشب.

- أهذا هو كل شيء؟.

- ليـس بعد... فإن هذا المكان هو قطعة مخدرة من الجحيم، قطعة سرمدية يشوبها ذلك النعاس

اللذيذ الذي تدبقه نشارة الخشب، بإمكانك الحصول على الخمرة من كوة في جدار (من

الصفيـح) ربـع قنينة بثمن بخس، ثم تناديك غـرف جانبية، كوة من طابوق أشبه بكهوف عتيقة،

لا يوجد داخلها سـوى مقاعد، هي عبارة عن علب من الصفيح المخصص للسمن النباتي،

تقبلها على فمها، وتريح عجيزتك عليها وتعبِّئ كأسك الوهمية، فإن الكأس هي عبارة عن قدح

بلاستيكي كان يستعمل سابقاً للبوظة. ومن الصعوبة أن تتعرف على الشعب القابع هناك.

بائعو الملابس المستوردة، علب السجائر المغشوشة والمصنعة، مقامرو الخيول والديكة،

خفيفو الأيدي، السماسرة، الجنود الهاربون المتسترّون باللحى والكوفية والعقال.... الخ.

- ومَن أنتَ بين هؤلاء؟.

- لا شيء، إنني أعتاش على جثة فحسب، لقد تعرفت عليها بصورة عامة في بادئ الأمر، كان

عبارة عن رجل بدين أو بطين كما تقول لغة الأولين يعب الخمرة لا من حلقه فحسب بل من

أنفه كذلك، كان وقد ورث ريعاً لمزارع أبيه، ولاح لي أنه يقبلني، على الرغم من أنه لا يتفق

عادة لا عليّ ولا على نفسه، وعشت في هذا المكان ليالي طويلة كنت أشرب الخمرة بلا

توقف وآكل الحمص أحياناً والخبز اليابس الذي نعصر فيه الباقلاء الباردة والمخشبة، ثم إنه

بعـد منتصف الليل يشـخر تحتي ويقبّل ذلك الـشيء وينام رافعاً مؤخرته السمينة، كما لو كان

طفلاً بريئاً. ولأننا بدأنا لا ندفع، تم استدعاء شرطي إلينا. ودفعنا في زنزانة مريعة في أحد

مراكز الشرطة... ثـم أطلقوا سراحنا وعدنا من فورنا إلى منتدى نشارة الخشب، غاب عني

نصـف نهار ليعـود بنقود ثقيلة مرزومة تحـت أبطه. ولقد أخبرني بأنه قد حصل على صبي

صغـير في الثالثـة عـشرة من عمـره وإنـه ينتظر خارجاً، وسـاوم صاحب منتدى نشارة الخشب

ودفع له حزمة مـن الأوراق النقدية وأدخلنا الصبي إلى كوّتنا... وتمتعنا فيه ثلاث ليال، كان

الصبي يبكـي غالباً ويصرخ.. ونحن لا نبالي وقد جعلناه يشرب حتى خمد إلى جوارنا

وقرفـص قدميه ونام. لقد نفدت كل ما لدينا من حكايات، حتى تلك الكاذبة منها. وشرعنا نخلط

أنـواع الشرب ونغني وندبك... إلا أننا لاحظنا وبشـكل جانبي أن هنالك حركة غير طبيعية في

باحة نشـارة الخشـب، حينها دخل أناس يرتـدون ملابس مدنية

وقد قبضوا على أنوفهم بأصابعهم

وحملـوا كيس نايلـون مخصص للأزبال وضعـوا فيه ذلك الصبي وهو نائم، ثم اتهموني بأنني

قاتـل. وقـد أجبتهم بهـدوء: لم يكن الموت يجرؤ عـلى الدخول في كوّتنا تلك.... أليس كذلك؟.

لم أرغـب أن أصحـح لـه الأمر، وذلـك لأن الذي مـات حقاً هو ذلـك الرجـل البطـين، ولم يذكر في ملفـه الطبي شيء مـا عن الصبي الذي تحدث لي عنه... كما أني سـأكون مضطراً لأن أوسع معه خطوة أخرى في الطريق لأعيد ترتيب الحكاية على حقيقتها.

الراشي

ما هو ذلك السر في الشارع، وإذا ما كنت أرنو نحوه من بعيد يعرف مثلاً سر طيفي على الماء، لوعة إحساسي بالفاقة، أجمع الخرق جميعها من نفايات المدينة، أدوزن الأرصفة وأشحذ همة العصافير على الأشجار.

لا شتاء يطردني من الساحات العامة، ولا برد يجرؤ على أخذ نصيبي من التسكع وحصتي من الضياع، ذلك لأنه أنا المدينة. أنا طيفها الليلي، أعصابها اللابدة في الجدران، مشاعرها المندسة في جلود الأشجار، حماقات العري في رأسها الكونكريتي الأصلع.

أقنعتها الزجاجية وفضلاتها من السيارات، أنوثتها المسفوحة في الملابس الداخلية المعروضة خارجاً مجففة أعضاءها في أكياس من النايلون، مظلاتها التي تنتظر الباصات الكسولة سيئة السمعة والرخيصة.

أبناؤها من العرصات والمحلات العتيقة، تلك التي تبيض صباحًا مساءً، وتحيض فيها السوائل في البالوعات، نجومها اللامعة المعلقة على رقاب الأعمدة الكهربائية، مصطباتها الخشبية التي تترك عليها الصحف والمجلات.

أسواقها الثعبانية ورائحة الحناء في سوق العطارين ورائحة العطر الباذخة التي تنضح وتطير من أجساد الطالبات الجامعيات في محطات وقوف السيارات في باب المعظم. تلك الأكواخ المصنوعة من سعف النخيل، والتي فرضتها همة الفقر وصيَّرتها مستقبلا مشرقاً لنسوة سقطن من خريف العمر وأجهدن أقدامهن في جني البطاطا

والطماطم والخضر والنعناع وأوراق الرياحين.

ذلك الركن الذي على شارع أبي نؤاس أعشقه وأتوق إليه، مظهر النهر الذي كف عن الجريان وبلغ به العطش حد أن شاطئه تحوّل إلى أسنان من الأسلاك الشائكة.

قفا جسر الجمهورية وجسر الشهداء اللذين يحرران قدميَّ من الجاذبية الأرضية، تلك الأحياء السكنية التي نبتت سهواً في خاصرة البنايات الجاهزة، والتي أمرق من خلالها بصعوبة....

وهؤلاء الصبية حفاة الأقدام الذين يتجمهرون خلفي ويحتفلون بي بالحجارة والعلب الفارغة ويقرعون على الصفيح وينشدون نشيدهم اليومي

هيه، هيه، مخبل

هيه، هيه، مخبل

هيه، هيه، مخبل

ألعق جروحي وكدماتي البسيطة وأذهب سعيداً، خفيف الوزن، ألتقط نفايات المدينة وأقتنيها، أهرب إلى مقبرة الغزالي، واندس بين القبور التي أكلها الطابوق ونسيتها شاهداتها.

أبول هناك وأتحرر من سروالي الثقيل المتعفن، وآكل من يد درويش عاقل يخشى أن يعامله الناس كمجنون، إلا أنني أحن فوراً إلى المدينة، وذلك لأنني أنا المدينة. أذهب إلى ساحة الأحصنة وعربات النفط، وأمتّع بصري بالنظر إلى أيروها الطويلة المطلية

بالأسود وإلى كشح أناثهن ويندفع الموت إلى خصيتي.

احتمي بعربة نفايات متروكة وانقسم إلى أسفلي وأشبعه ضرباً حتى ينام ويعتقني للراحة.

ولا راحة تتركها لنا المدينة

فأذهب إلى المدينة

وذلك لأنني أنا المدينة

حيث الليل فيها يكثر وتعانقه النوافذ وتسارع الأبواب إلى إحكام جسدها مثل حيوان مريض ليأكل الآخر ويهرب في أحشائه.

فأين هي المدينة، الآن منّي؟.

الصَّبر على اللقالق

إلى موسى صادق الذي طار فوق عش الجنون
ورفع سقف منزلي لنحلّق معاً ونحن نبتسم

أسكن تحت السقف مباشرة، أعني تحت سقف غرفتي الصغيرة التي هي فوق سقف منزلنا الطابوقي العتيق، حينها أصبحت السماء أمامي بلا نافذة تطل عليها، هكذا، مكشوفة وعارية دونما أي عزاء.

ولأنني وحيد أمّي المدلّل، التافه، ولأن أبي فرّ من وراء ظهرانينا مع فتاة ساقطة، فأنا لا أفضل أن أسُدَّ ثغرة عجيزته، ولست مسؤولاً أمام أحد.... اللقالق هي ما تثيرني، وتشرب التوتر من أعصابي.

على الرغم من أني أحيا وأنا منطفئ، أخرج إلى الطرقات ليلاً، في أزقة حيِّنا الصناعي قاصداً دكان عبد الله العطار، وهو لقلق عجوز، متقاعد، يقتعد ركناً شاحباً في دكانه الصغير الذي تخنقه الروائح.

أقعُ عليه وهو يشرب الخمرة ويدعوني لمجالسته، يصبح كريماً معي ويسمح لي أن أشرب بحرية، إلا أنه دائم السؤال عن أمي وعن شبابها وحيويتها، وكيف تقضي حياتها، وحيدة بين أربعة حيطان.

أعود ثملاً، فأعثر عليها مكدسة في غرفة النوم، والتلفاز يشخر، ثم آخذ رغبتي من نفسي، أضطجع على بطني وأحلم، وأدع اللقالق تداعب زغب صغارها وأحلم لكي لا أنام وحيداً.

الأمر يبدأ بالمساحيق، خاصة الحاجبين والشفتين، ثم، ليكن، لا بدَّ لنا أن نعيش... الحياة لا تبالي.... اللقالق التي رحت أحصيها مندسة في جواربها الحريرية، في لزوجة غبار الحمّام، في طيات اللحم وتقطيبة ربلة الساقين.

لقد بدأ المنزل بالتنازل عن أسبابه، وجاء ذلك الرجل الأسمر،

الصلب بعينيه المالحتين... وأكل نصفاً خارجيًّا من طلعة منزلنا وهدّم الطابوق، ثم نظف وجفف وصار دكاناً نؤجره، وصرت مكشوفاً من ناحية غرفة الضيوف، وأركانها تحولت لخزن البضائع.

ولم أعد أنادي على أمي... بصوتٍ عالٍ. الصحيح، إن أمي لم تعد تسمعني، وأعير جزءاً مني كل ليلة إلى عبد الله اللقلق المتقاعد، وأعود متخماً ومكهرباً كما لو كنت أحيض.

وأعرف بحس القلق الذي ما زال يسكنني بأن أمي أخذت تموء، إنها قطة في حضرة فأر... اللقلق بذيل غليظ .... وشاهدت ذلك الذيل يسرق مهرولاً ونسيت فأبصرتها... تلملم شالها الذي لم تعد تطيقه.

ووجهها مصفر، ومشيتها متعثرة وقالت لي:

- هل أنت هنا؟.

فاجبتها:

- وأنت كذلك.

هاجرت اللقالق إلى منزلنا وأنا لم أعد أحصي أعدادها، كبرت ولم تكبر ذاكرتي، حيث عدت من ليلة مع آخرين تركوني وفروا، وقد تعرّق بنطالي ونبتت حواسهم في جسدي.

ودخلت إلى منزلنا الذي أخذ يحب الظلام ويقفل عليه... ورأيت الأمر واضحاً، أبيض وينتفض.. ولم تجفل خطوتي واقتعدت ركناً، وأخذت الظلام وتابعت أجزاءه... ورحت أبصر ذلك الأمر الذي

اندس تحتي، وتكور، والتذّ الظلام بشخيره وعريت نصفي ولاطفته.

وصرت أضحك، وأضحك، حتى اهتزت حيطان منزلنا، وهربت من وراء ظهري... أحصي اللقالق وأضحك، فلا تغضب مني لأنني سأضحك..... فهل ستمنعني؟.

كرّاسة عابرة في كل حين!

١

مـن الصعـب جـدًّا أن لا تـأتي مقيـداً... تماماً كما هـي المسرات الأولى، الناطـة والفائضـة عن الكـف. هل كنت مشبوهاً، في عهدة آذار، وبيضتـه التـي تعفنـت؟.... أنـا الشـاب المدرسي ابن السـابعة عشرة الذي قدّرَ عليَّ أن لا أتوب، وأن لا أتذوق طعم أسـناني سـوى عفن شفتي ودبقها الممجوج الراكد.

فنـادق الميـدان أعرفهـا بـإسراف رجـل صغـير لا فصـل له ولا أهـل... عدوانيتـي وحدهـا تفـي بالغـرض، وليكن، فأنـا لا أطلب التسـلية خارجاً... بل أنا من ذلك النوع الذي يتسلى بحياته ويهدمها أكثر من مرة.

٢

أصبحت نزيلاً أكثر من مرّة عاقرت لعبة لا رادع لها

اسمها الشجاعة مع فقدان الامل

٣

قال لي الطبيب ذات مرة لا بدَّ من قليل من الصدق لكي نحافظ على نوعنا، ولأني لا أعرف ما هو ذلك النوع الذي يقصد، جاهرت بأكاذيبي.

٤

الشـتاء يزعج المارة، المـارة يزعجون الأرصفـة، الأرصفة تزعج الأشجار، وهذه الأخيرة بعضٌ من سرقاتي.

٥

سرقت معطفاً، وقبل يومين حقيبة جلدية تحوي أوراق معاملة عقارية، دخلت إلى مكتبة منزوية في شارع التحرير وسرقت كتاباً غير ذي فائدة عن القمر، وهكذا أصبحت متوازناً.

نعم الشمس لم تكن بعد ممكنة التصديق
قبل بزوغها

٦

اقتادوني مرةً أخرى   أذلوني هذا طبيعي
شاهدت مفرق نهدَي الباحثة الاجتماعية
وهي تهبط على ركبتيها تلمَّ الأوراق
التي سقطت من متن ملف
مفرق لامع جداً مصبوغ بالأبيض
ردّت الزوائد بأصابعها النحيلة المطلية بالأحمر
وحين ربطت مفرق نهديها بالهبوط الصعب
على الركبتين... وذلك المدبب السمين خلفها
وتأففها وضيق نفسها... حصلت على الوضع
الذي أنا بحاجة إليه.. وغرفت بكفي
قليلاً من الماء من باطن حوض الموزائيك

في الحمّامات الخلفية وغذيت توتري

النيّئ.. وأعدت وضع التنورة في محلها

الضيق الراكز، ثم اضطجعت في سريري

الحديدي ونظرت من النافذة الجانبية

ودمّر الظلام لسانه ليطفئ آخر ابتسامة

للضوء حمراء كانت عالقة في شعيرات رؤوس

أشجار اليوكالبتوس... وعلّق عصفور متأخر على

المشهد وسبقته حمامة هاربة لا تعرف وجهتها

وهكذا تذكرت اسمي

هربت مرة أخرى، وكان آذار يلفظ أنفاسه الباردة، تصنعت مغصًا مفاجئًا خدعت الممرضة وطلبت الذهاب إلى المرحاض... وهذا يعني بأني قادرٌ على حيازة ما تبقّى من المساحة الخلفية لحديقة المستشفى.

وذلك الشرخ المخبأ في الحائط، الذي أعرفه جيداً.... امتطيت الحائط وهرولت به خارجاً.

شاهدت الحرية أقل شأنا مما حلمت بها

سيئة العطاء وبخيلة

لا أمان فيها ولا طمأنينة

الحرية التي تنفتح على المعنى

تضيق ويتناقص ينبوعها

ولا بدَّ من الكثير من الكلمات

لكي نبلل طرف جنح لها

تلك الحرية التي هي دائماً

إلى الأمام

وليس لدينا سوى الدروب، السرية، الضيقة

للذهاب إليها

هكـذا صمَّمت موضعي مـن المنازلة، وقـررت أن أبقى نزيلاً في مصحة كبيرة واسعة الأبواب ولا نوافذ لها مكتوب على واجهتها

لا يدخل علينا من لا يعرف الرياضيات

وذلك لأن هناك الكثير من الخسائر والجروح والتضحيات

التي ينبغي إحصاؤها

وحسابها

والأهم من ذلك أن لا نخطئ في الحساب

أيها القادم الجديد اتبعني وتذكّر

هذيان رجّة كهربائية

إن حيوان الجنون ينمو داخل العقل في بادئ الأمر، ثم يكبر على العقل وعلينا مطاردته خارج العقل بعد ذلك. من أبعد مدى، من خلف شحمة عيني، ربما تأتي تلك الومضات القصيرة الملتقطة العجولة.

ومضات هي عبارة عن شرارات راقصة أراها أكثر انتشاراً في الزاوية المخبَّأة خلف الباب الجانبي، حيث رأيت الحائط يرتبك وتسقط اللوحات المؤطرة بالخشب وتهرب القطط السجينة من داخلها القطط الناعسة الشاحبة المشاكسة بعيونها الملونة وأنوفها الصغيرة الحساسّة.

تركوا إبريق الشاي، يبرد، إلا أن أعضائي ما زالت ساخنة ولا أدري هل سيعاودون إيصال الأسلاك الوحشية مرة أخرى برأسي؟.

هل سيمكِّن الظلام مرة أخرى وتعض الومضات عيني في غرفة المرض اللعينة هذه؟.

يا لهول ما رأيت... إن حيوان الطاقة يبتسم وتختلط الومضات ولا تتيح لي فوضاها تفقُّد الكرسي السيَّار، إلا أن فسحةً من الضوء الساكن انصبّت على ذلك الرجل الطويل الذي صبغ ملابسه بالأبيض.

وهو الرجل نفسه الذي يجس صدغي بكلابتين معدنيتين قرب ذلك الجهاز الخشبي المربّع، وأطفأ الضوء في عيني وفجّر من صدغي آلافاً من الومضات وجعلني هباء منثورا.

ثم يكمل شعاعٌ آخر غريب وباهر، وجه امرأة تتطلع في وجهي، هي ذات المرأة التي رأيتها كثيراً من قبل هنا أو في منزلي صباحاً وظهراً، وكذلك في الليل في السرير والمطبخ وغرفة الضيوف، في حفلات الأصدقاء، وفي المصائب والشدائد بكامل ملابسها، وبنصفها أحياناً، ودونها مرات عديدة.

ارتعد الكرسي السيّار تحتي وشاهدت الحائط يستعيد اتزانه والقطط تسجن نفسها في اللوحات المؤطرة بالخشب، وقال لي باب آخر مصبوغ بالأبيض هو الآخر ممنوع التدخين.

ثم تدارك ليقول مرة أخرى، هنا غرفة الطوارئ، ثم لا شيء يقال في الممر الطويل الشاحب تورقه أسطوانة إطفاء حريق مصبوغة باللون الأحمر، وهي معلّقة على جوار نافذة وحيدة مهجورة تماماً ولا معنى لها.

جاء الصبح رماديًّا هذه المرة، صباحٌ أخرسُ لم يفلح في إزالة التشوش الساكن في رأسي، بدت غرفة الضيوف التي أقطنها منذ زمن بعيد مرتبة كفاية، إلا أن الأريكة مدعوكة قليلاً وطاولة الطعام فارغة تماماً إلا من قارورة الملح الأثرية الحزينة.

وسمعت الباب يُطرق، الباب الخارجي على الأغلب، ثم باب يفتح، هو باب غرفة النوم التي تقبع في العمق إلى جانب غرفة المعيشة، وإذا لم تخنّي الذاكرة سمعت صوتاً رجوليًّا، ثم صوت حذاء يصر.

ثم شاهدت الرجل الطويل نفسه المصبوغ بالأبيض يقترب مني ويضع يديه على كتفي، وكالعادة غرز إبرة حادة في وريد ذراعي اليسرى وتركني متوتراً مكبوساً في الكرسي السيَّار. وقد عادت تلك الومضات الفائرة إلى نشاطها المألوف.

وخرجت تلك المرأة من غرفة النوم على الأغلب وقد صبغت وجنتيها بالأحمر وشفتيها بلونٍ أزرق مخضَّب بالأبيض، ساعدتني المرآة الطويلة التي تسكن الكوميدينو الخشبي في غرفة الضيوف في أن ألمح ذيل تنورتها القصيرة الحادة.

سمعت صوت مذياع يمارس الضحك في أذني، ثم صوتا لصنبور الماء يسكب في إحدى البالوعات، وشعرت بأن المكان خالٍ ولم أشاهد وأنا في موقعي الجانبي الذي يطل على المرآة الجانبية، شيئا مهمًّا.

إلا أنني بذلت جهدا لا بأس به وأنا أحاول تحريك عجلات الكرسي لكي أكون منفتحا كفاية على غرفة الضيوف، ومن ثم الممر الداخلي وغرفة الحمّام ونجحت قليلاً، صرّ الكرسي وتردد، ثم استدار ببطء.

شاهدت المرأة التي طالما رأيتها من قبل في حياتي تخرج من غرفة الحمام، بدت ساهمة تماماً ولم تنتبه لي، وقفت قليلاً على عتبة غرفة النوم وسوّت من وضع تنورتها قليلاً صففت شَعرها من الخلف ودخلت،

شاهدتها بدقة وأنا أحبس أنفاسي وأتساءل ماذا يجري؟

تذكرت أنني لم أكن أعود إلى المنزل دون أن أحمل لها المزيد من

الطعـام وبعض الحاجيات الثمينة، نعـم، أنا أعرف ماذا عليَّ أن أفعل وأنا أربي امرأة في منزلي.

كنت أتفقد كرشة بطنها كل ليلة، على الرغم من أنها سريعة النوم بطيئة الحركة جذابة فقط وهي عارية من جهة الصدر على الأغلب.... إلا أنني لم أكن قد أصبحت رجلاً مسـلوب الإرادة لأسـباب ليست كلها موضوعية.

حسـناً لم يكن الأمر سـهلاً عليها وهي تراني منسـحباً من صورة الرجل الذي كنـت مغلفا بالفوضى الكهربائية الفائرة غاطسـاً ببركة النعـاس ولزوجة الحقن والعقاقير وحاملاً للتهدم التدريجي البطيء، الذي جعل مني طفلاً كسيحاً لا نفع فيه.

ولكننـي لم أعرف بعد ما هي حكاية هذا الرجل الطويل المصبوغ بالأبيض، وكان ليلة أمس موجوداً أيضا في منزلي اسـتعمل منشـفتي ودخـل غرفـة نومي مرات وأعطاني ثلاث مـرات أقراصا ذات طعم كريه.

شاهدت تلك المرأة تدخل الحمَّام وتترك الباب مفتوحاً، شاهدتها تقـرص حلمتي نهديها وتترك قطعة الصابـون تتتره على بطنها وذلك الأسود أسفلها لم يكن ملحوظاً كفاية.

بدا المشـهد غامضاً... كنت بالكاد أحافـظ على مجرى الومضات الكهربائيـة وأتابع مسـار الرؤية وأركّز بصري لمـا أهدف إليه، إلا أني أظن بأنني شاهدت الرجل المصبوغ بالأبيض دخل عليها الحمَّام.

ثـم أغلقـا البـاب وتركاني أسـمع نبضـات قلبـي وأنا أنـام نوماً صناعيًّـا. ومـا أن فتحت عينـي، وكان الصباح حـاضراً يملأ النوافذ بالضوء والحياة بالحركة، حتى حملوني عنوة إلى غرفة المرض.

وكان كل شيء معـدًّا... الصنـدوق الخشـبي المربـع، وعضَّاضـة الأطفـال المسـتعملة بطعمها الكريه بين أسـناني، ثـم مسـبحة القطن المغمـس بالملح عـلى صدغي، وتطايرت الومضـات الكهربائية وهي تترف شرراً أزرقَ وأحمرَ وأصفرَ.

ثم الظلام والصمت والغياب البعيد، لم أحصل على إفطار نظامي منـذ مدة، لقد وضعوني في الشرفة الخارجية هذه المرة، وكان الإفطار موضوعاً على طاولة خشـبية، إلا أنني لم أتعود أن أمد يدي من تلقاء ذاتي.

إنّنـي أرغـب بمكعبـات السـكر، نجحـت بجهد أقـل أن ألتقط واحـدة... ومضغتهـا جيدا، تذكرت الحصان الـذي أكل قطعة الملح مـن يدي ظاناً أنها سـكر، عندما كنت في فرقـة الخيالة، ثم سرعان ما سمعت صهيل الرجل المصبوغ بالأبيض، وصرير حوافره الجلدية.

لقد جاء لي بالأقراص المهدئة، دونما شك وضعها دفعة واحدة في فمي، وشعرت بوجود تلك المرأة خلفي... كانت خلف قفا كرسيي، وقد سـمعت لهاثها يتردد، قررت عدم ابتلاع هذه الأقراص الكريهة هذه المرّة، علقتها في زاوية فمي.

وتظاهـرت بـشرب المـاء وراءهـا، ثم بصقتهـا بعد أن انسـحب

الرجـل والمرأة مؤدِّين مهمتهما باتقان، سـمعت رنين الهاتف وردّت المـرأة بصـوت أقـرب إلى البحة المصطنعـة، أو الغنج الصبيـاني لفتاة مراهقة تعرض نفسها من خلال صوتها فحسب.

شـعرت برغبة في العطـاس، أزالتها متابعتي لذبابـة عنيدة كانت مـصرّة عـلى امتصاص سـكر الشـاي من حافـة القـدح المصنوع من الرخام، الذي لم أفكر باستعماله، شعرت بالنعاس تلقائيًّا.

هـذه المرة لم تزرني الومضـات الكهربائية هذا الصباح، وما زالت الشـمس ترعى مبكـراً وهـي تسـخّن الدرابزين الحديـدي للشرفة، وتجعل ذلك العصفور يلهو على حبل الغسيل.

ويحدُّ منقاره الصغير بقراصّة الملابس، إلا أنني شـعرت برغبة في التقيـؤ، ونجحت في ابتلاع طبقة حامضيـة في بلعومي... صفق باب منـزلي، وتذكرت الرجل المصبوغ بالأبيض، كيف أن هذه المرأة ذليلة أمامه، إنه يعرف أكثر مني كم هو حجم بطنها هذا الصباح.

قرصـت أذني بيـدي ووتـرت قفاي ورحـت أصـدر أصواتاً كما الأطفـال، لم يأبـه بي أحـد ووضعـت يـدي عـلى عجلات كرسـيِّي، وكفارس قوي أدرته تدريجيًّا لأدفعه بعنف إلى خارج الشرفة.

لقـد أصبـح سلسـاً بيـدي، وقطع بي مسـافة جيـدة في نهاية الممر الجانبـي، محاذاة غرفة الحمام التي لم أعـد أطيق رؤيتها، ونظرت باتجاه غرفة النوم، بادلني الباب نظرة صامتة... شـعرت فيها بأنه متآمر، لا أدري من أين واتتني الشجاعة، لأمشي بكرسيي بهذا الشكل السليم.

كنت متوتراً، ودوار حاد ينهب رأسي، وشعرت بالتردد في معرفة ماذا يحدث وراء هذا الباب الذي طالما ألِفَني وجعلني أدخل بحرية لكي أسترد حقوقي في ذلك السرير الذي يبدو أنه جوهر المسألة.

وهكذا استطعت أن ألوي الكف المعدنية لذلك الباب الخائن، وفتحت لي ومضة أكثر شجاعة في عيني، الباب كله وسمح لي ضوء المصباح الجانبي الموضوع على كتف السرير أن أشاهد الرجل المصبوغ بالأبيض نصف عارٍ.

وقد زرع حديقة عشب أسود في صدره المتورم، وكانت المرأة منحنية إلى جواره، وقد باعدت رأسها بعيدا عنه، وأبقت نصفها الأسفل مندساً تحت شرشف السرير بما يجعلهما يبدوان كأنهما جسد توأم في جذعه الأسفل، بينما يتفرع من أعلاه.

وقد زرع الباب وهو ينفتح هكذا فوضى سريعة، تأخرت قليلا عن موعدها من هول المفاجأة... وقفزت هي غير موفقة، وقد أعاقها الشرشف العنيد الذي أمسكها من قدميها.

فانقلبت إلى الطرف البعيد من السرير تلملم كُرَتَي نهديها وتحتمي بالسِّتارة الململمة المتدلية من أعلى، بينما انشغل الرجل المصبوغ بالأبيض بارتداء سرواله وهو يخبىء شيئا كان يعيقه عن العمل بسرعة.

ولم يطل الوقت أكثر، فقد هرول بي الرجل، وكاد يسقطني أرضا مرتين، بينما لم أجد بدَوري الكلمات المناسبة، ووضعني في موقعي

السـابق، عند الشرفة. وقد سـمعت الرجل المصبوغ بالأبيض يشـتم بصوتٍ عالٍ.

ويوجه الكلام إلى تلك المرأة بقسوة، وهو يتكلم بغضب، ويذكر الأقراص المهدئة، أو شـيئا من هذا القبيـل. لم يعد العصفور موجوداً لحد الآن، إلا أن الذبابة نجحت، كما يبدو في تناول شاي الصباح من قدح الرخام، بدت سعيدة وهي ترقص بجناحيها، وتسبح بيديها.

وكان علـيَّ بالطبـع أن أخضـع إلى حقنـة عاجلـة في وريـدي ممـا اسـتدعى ذلك تغيير وضعي، وقد أدار الرجل المصبوغ بالأبيض قفا الكـرسي، لأكـون في قبالته تمامـاً... وقع بصري، وهـو يحضّر حقنته البلاستيكية المؤلمة.

على تلك المرأة، وهي تخرج من غرفة النوم بمنامة قرمزية محتشمة، كان شـعرُها مربكاً... لاحظت شـيئاً من الحزن في عينيها، وقد بدت هادئة أكثر، إلا أنها عقدت ذراعيها على صدرها زيادة في الحشمة.

وما أن حاولت التمعن فيها أكثر، حتى انقلب وجهها إلى درابزين الشرفـة، وقـد بدا الصباح شـاحباً، وصوت الحياة في الشـارع يغلف انتباهـي بذكـرى بعيـدة لحياتي. كنت أهـرول من خلالها في الشـارع وأزيد الزحام رقماً، وهو أنا، وأشارك الوجود بأقدامي.

وعادت الومضـات الكهربائية مرة أخرى، ودخلت في النعاس، وتكاثر الضباب في رأسي، وعند المساء وجدتني أبول على نفسي، فقد نمت طويلاً، سمعت دقات الساعة خلفي بعيداً في أعلى المدخل.

وكان كلب جارنا ينبح في الظلام ويتعجل زواله، شعرت بالبرد بين ساقَيَّ، وأنا مسمّرٌ على كرسي الحراسة، كان المنزل صامتاً، مهجوراً، ومن حركة السيارات المتفرقة، ومن سماعي لأصوات الكلاب البعيدة عرفت أن الوقت كان متأخراً.

شعرت أن رأسي كان خاوياً تماماً، وكذلك معدتي، تذكرت كلمة قالها لي صديقي، في الدراسة الجامعية... المرأة كائن ضعيف. هذا صحيح، إلا أن ضعفها يقوى عليك إلى درجة يرديك قتيلاً وبإرادتك.

سمعت الباب الخارجي يفتح بقسوة، سمعت صوتها يرن، ثم صوت ذلك الرجل المصبوغ بالأبيض، وسمعت حركة اختلاط وقع أقدامهما، وصوت وقوع سنديانة تكسّرها، إنها السنديانة الصغيرة التي علقتها هي إلى جوار الباب.

وحذرتها أنا بدَوري عشرات المرات من إمكانية سقوطها، وكانت تتعلل بأن لا غريب سيزورنا، ويعرف الجميع أين تقع هذه السنديانة في منزلنا.... وشعرت بالرجل المصبوغ بالأبيض قربي، وقد سحبني جانباً، ثم نظر إليَّ بانتباهٍ شديد.

ثم عدّل الكرسي لأكون أمامه تماما، وعرف بلا شك من الرائحة على الأغلب، ثم من بقعة الماء تحتي، بأنني لست على ما يرام، وذهب ممسكاً أنفه، وهو يضحك صوب الحمّام، واقتربت تلك المرأة التي طالما رأيتها في حياتي مني، ثم نظرت اليَّ بغضب.

وفكرت أنها ستقوم بنزع بنطالي وتغييره لي، فهذا ما كانت تفعله في الماضي من الأيام، ولعلها ستدفعني إلى الحمام وينتهي الأمر، لقد تجشأت ثلاث مرات، إلا أن ذلك الرجل عاد حاملاً زجاجة طويلة، في جوفها سائل أحمر، واقتعد الأريكة السوداء الفارهة، إلى جانب مكتبي.

بينما ذهبت المرأة إلى غرفة النوم، ثم عادت بعد قليل، وقد تحررت من بعض ملابسها، عادت وهي ترتدي شورتاً من الجينز القصير مع بلوزة واسعة مكشوفة الصدر، وجلست بجواره.

وصار نصيبي أن اشاهد ربلتي ساقيها، وعضلة الفخذ التي جعلت الشورت يضيق بأمرها، بينما بدت جلسة الرجل مريحة أكثر، ورأسه المستطيل قليلا يحاذي شهادتي الجامعية المعلقة في ركن المكتبة بإهمال واضح.

وأخذوا يدللون الزجاجة، ويعبِّئون كؤوساً منها... ومرّ وقت طويل، كما أظن، وهم يتكلمون في أمور لا أعرفها، وتضحك المرأة غالباً، ويعضها ذلك الرجل المصبوغ بالأبيض من رقبتها، ويربت على غنائم اللحم في فخذيها.

ثم نهضت تلك المرأة وهي تحمل الزجاجة الفارغة لتضعها فوق رأسي بالضبط... كانت تحاول أن تثبّت الزجاجة الفارغة على فروة رأسي، ونهض ذلك الرجل المصبوغ بالأبيض، ليقدّم المساعدة.

ثم سرعان ما انتابهما اليأس، وأخذ الرجل يعبث بأرنبة أنفي،

لا أعـرف ماذا عليّ أن أفعل، سـوى أنني كنت أرغب في مجيء النهار بسرعـة. إن المرء لا يقوم بتصرفات كهذه في وضح النهار، وشـعرت بعجلات الكرسي ترفع.

كانـت المرأة تقـوم بالعمل لوحدهـا، لقد دفعتنـي داخل الشرفة حتـى أوصلتنـي عنـد الدرابزيـن الحديدي الـذي يسـوّر الشرفة من الخارج، ودهشت حين شـاهدتها تنزع كلابات الدرابزين الحديدي، لأكون وجها لوجه أمام الفراغ.

بينـما سـمعت ذلك الرجـل يغني أغنية بـدت مألوفة لـدي، لقد أصبحت الشرفة من دون حاجز أمان، وما عليها سـوى دفعي قليلاً لينتهي الليل بأسرع مما أردت. إلا أنها لسبب ما لم تفعل، فلقد تركتني على حالي.

وذهبتْ لتُحدِّث الرجل المصبوغ بالأبيض، وقد سـمعته يصغي، ثـم باب ما في منزلي يصفـق.... وعمّ الهدوء المـشرف مرة أخرى، لا أحد يسـتطيع أن يحزر بأن منزلي يقع في الطابق الرابع، إلا إذا نظر من الشرفة ليدرك ذلك الارتفاع.

وانكشـف الفجر أخيراً، رأيت حزمة من كلاب الليل تنسـحب أشـبه بعصابات الشـوارع... شـاهدت مكوى السـعادة يشـمّر عن ساعديه، وصيدلية سعاد الخافرة تطفئ مصابيحها.

وكانـت العصافـير قد سـبقت الجميع لتطلق موسـيقى مصاحبة لانفتاح سـتار نهار جديد... في هذا الجانب من العالم، إن برد الصبح

وحـده يسـتطيع أن يكافئني على صمـودي، إلا أن هرولـة الناس في الشارع وتطلعهم إلى سـاعاتهم اليدوية بجدية أشعرني بمدى عزلتي وغرابة النوع البشري الذي أنتمي إليه.

وجـاء ذلـك العصفـور أخـيرا، ربما لم يكـن هو ذلـك العصفور النشـيط الذي شـاهدته من قبـل، لم يجـد الدرابزين فاكتفـى بالتطلّع إليّ بحـذر، وهو يحلّق وكأنه يتهمني بفكـرة انتظاره طوال الليل لكي أنوي به سوءًا.

لقـد أدركـت وأنا أتطلع إلى أسـفل مـدى محاذاتي لحافـة الشرفة، وشعرت بمدى خطر ذلك، وأبصرت في الجانب الآخر لبناية ليست بعيـدة كثـيراً، صبيَّـة مراهقة ترتـدي البلـوز والبنطال القصـير تعلّق الملابس على حبال شرفتها.

بدت نضرة تماماً، وهي تعاني من آلية تكرار مط بلوزتها الشحيحة التي كانت تقفز على ظهرها لتكشـف عن بياض ناصع لا ترغب هي بإطلاقه إلى الحرية.

اسـتطيع تمييـز رائحـة القهـوة البرازيليـة قادمة مـن المطبخ، تلك القهوة التي اشـتريت أطناناً منها طوال حياتي، وسمعت سعال ذلك الرجل المصبوغ بالأبيض في غرفة المرحاض. وأخذت أحلم بفنجان قهوة بين أصابعي وسيجارة بين شفتيَّ.

إن هذا وحده يبرهن لي على أن الحياة ما زالت مسـتمرة، شـعرت باقـتراب خطوات ثقيلـة، وعرفت أنه ذلك الرجـل، وأخذ ينظر من

فوق كتفي، ودفعني ببطنه قليلا إلى الأمام تماما.

إنني أرى أن لا فرق بين حافة الشرفة وعجلات الكرسي الذي أغطس فيه. كانت الفتاة الصغيرة تنظر نحوي بذهول وقد انتهت من عِبء نشر الملابس على حبل شرفتها المقابلة.

وأظن أنها ابتسمت لي وهي تراني أجازف بالظهور على كرسيي السيَّار بهذه الطريقة في هذه الساعة من الصباح الذي أمارسه على الحافة، وشعرت بثقل في رأسي، كان بطني يعضني، وقفاي يؤلمني، وقد تصلّب تماماً، وأصبح جزءاً من مسند الكرسي.

كان ثمة شيء فارغ يدور في ذهني تماماً، مثلما حدث الشيء نفسه، عندما نفدت ذخيرة الأعداء أمامي ذات معركة وهربوا وهم يرطنون عليَّ بكلام لا أفهمه. عندما أدركني أصدقائي طلبت سيجارة فوراً لأثبت لنفسي بأنني ما زلت حيًّا.

لم أكن خائفاً قط طوال حياتي التي تحطمت، إلا أن هذا الصباح يطلق عليّ شعوراً هو مزيج من الخيانة وسوء الحظ، مزيج من الرعونة وانعدام المعنى.

ماذا يحدث لو حصلت على فنجان قهوة وسيجارة أخرى أحرق بها شفتي، وأجعل من الدخان مفهوماً آخر لأفكاري؟.

ماذا لو أحصل في هذه اللحظة على مسدسي الذي حصلت عليه كهدية تقديرية، وأقتل ذلك البياض الزائف، في ذلك الرجل الذي أجهل من يكون، وتلك المرأة التي لم أعد أعرفها، والتي تكشف عن

مهارات جديدة لا عهد لي بها؟.

وسمعت ضجة مباغتة كانت عبارة عن زقزقة حزمة من العصافير، زقزقات نفير سرب عصافير يطارد جرادة هاربة.... جرادة صغيرة فارّة، شاهدت العصافير تتكاثر والجرادة تجاهد بكامل طاقة جناحيها للفرار.

اصطدمت أسراب العصافير التي تضاعف عددها بحبل غسيل شرفة الفتاة المقابلة، وانهارت العديد من قطع الملابس على الأرض، ثم جن جنون العصافير التي سرعان ما انضمَّت اليها عصافير أخرى للإسناد، بعد أن نجحت الجرادة في الفرار.

وخرجت الفتاة الصغيرة إلى الشرفة مسرعة، وعندما شاهدت الجرادة تنطلق باتجاهي شعرت أني خسرت المعركة، وأن ذخيرة الأعداء لم تنفد بعد، وبسرعة هائلة دخلت أسراب العصافير تحت كرسيِّي.

وشعرت بأن الكرسي قد صدم بقوة وتحركت عجلاته بحرية إلى الأمام، وسمعت صرخة تلك الصبيَّة التي كانت تراقبني، وسمعت نفسي أقول هكذا: لن يكون هناك نهار آخر أقتل فيه مرة أخرى.

الحمّامات الخلفية

إنها حقاً لصورة ضبع على ذلك الجدار الإسمنتي المصبوغ بطريقة سيئة داخل الحمامات الخلفية في ردهتنا المطلية بالوردي، التي تزين نوافذ حماماتها قضبان حديدية ذات عمر طويل.

إن صورة ذلك الضبع في الورقة الرابحة التي يعتمدها حسان في تحقيق رغباته المشبوهة داخل مناخ شبه مظلم خلف البرميل الحديدي المركون هناك، وغالباً ما كنت أقع عليه وهو يلهث عاضًّا دشداشته الرمادية الداكنة بأسنانه اللامعة المتورطة بلثة متورمة جدًّا قلَّ نظيرها.

ثم يخرج هادئاً ويداه ذابلتان يواجه فضاء الردهة الداخلي، التي رفع سقفها، يواجه الضوء في مشهد بشري مألوف يضج بالآخرين ويضيق ذرعاً بهم، ثم يبحث عن الضحايا في ردهة الشاي، أو عند الحانوت الخشبي يراقب مَن مِنَ الآخرين يشتري السجائر.

فيستدرجه بكفه العريضة يدفعه دفعاً الى الحمامات الخلفية يسرق سجائره، وإن رفض أو إن كان طيعاً، فإنه سيريه ذلك الضبع المرسوم كما لو كان حقيقيًّا على جدار الحمّام الداخلي خلف البرميل العتيق.

وكان الأمر هذه المرة أن يقع عليَّ أنا عبد الله صابر الذي أتيت حديثاً، وقد تم تقييدي أيضا مريضا عقليًّا في ملف مهترئ، همس في أذني يخبرني عن ذلك الضبع الذي أكل الجدار في الحمامات الخلفية.

وما كان عليَّ سوى تصديقه وتابعت خطوة نحو الحمامات الخلفية ووقع بصري على الضبع، كان أعجفَ، ويبدو عليه أنه جائع منذ

فترة طويلة، وطلب حسان سجائري كلها، وامتثلت لما يريد، وقد بدا مسروراً تماماً وهو يعض دشداشته بفمه ويشير إلى قفاه برعونة.

وهكذا عقدت صفقة رخيصة مع الضبع الجائع في عرينه الأزلي. لم تكن المرضة نسرين محقة وهي تلومني على ما فعلته بـ حسان، وقد بدا عليه أنه أصبح أكثر تعلقاً بي، وقد كفّ عن استدراج غيري إلى مشاهدة ضبعه الأثري العزيز.

لا يبدو على المرضة نسرين غضب حقيقي، لم ألمس ذلك في ملامح وجهها المدور، الحالم، ولا من زوايا شفتيها المزمومتين. وكانت نظرة عينيها حالمة وترغب بالفضول.

وقد رويت لها الحكاية تماماً كما فعلت من قبل وبالأسلوب التالي، إنها حقاً لصورة ضبع على ذلك الجدار الإسمنتي المصبوغ بطريقة سيئة داخل الحمامات الخلفية في ردهتنا المطلية بالوردي.... الخ.

إلا أنني تعمدت إخفاء ذلك الجزء الذي ترغب فيه، وهو ما يجب أن أعنّف عليه، الجزء الأخير، الساكن تماماً، الذي جعل حسانًا يتبعني بعد ذلك مثل كلب مخلص. تظاهرت المرضة نسرين بأنها تقرأ ملفًّا أمامها.

بدا صدرها بارزاً وهي تدفعه على حاجز الطاولة الخشبية، فيتصلب أكثر ويرفع رأسه عالياً.... إلا أنها محكمة الإغلاق من الأعلى وقد جعلت بلوزتها الصفراء ساتراً أماميًّا لا ثغرة فيها.

ثم نظرت إليّ مجدداً وأعادت رغبتها عليّ بأن أخبرها بكل شيء

وبصراحة الأطفال على حدٍّ قولها... وإلا فإن السيدة الكهرباء بالانتظار في غرفة الكي الكهربائية، ولم يطاوعني لساني، وهكذا حصلت على عقاب عادل، لا رحمة فيه.

لم أنجح في إبعاد حسان عني وهو يرفض أن يصدق رفضي في عدم الذهاب نحو ضبعه التافه المتورم في الجدار الإسمنتي... وكان عليّ أن ألمس الضبع من قفاه وأن أحطه على البرميل الحديدي، وأكدر معناه، بل أن أبصق فيه، ثم أخبِّئ عيني.

في اليوم التالي، عن عيني الممرضة نسرين، وهي تفارق مكانها الرسمي خلف الطاولة الخشبية لتجلس قبالتي وتعرض فخذيها أمامي، إنها ممتلئة تماماً وتشي تنورتها القصيرة بلحم ملفوف موزع بالتساوي على ساقين لا يطبقان بسهولة.

وهكذا لم أخفِ عنها شيئاً هذه المرة وشرعت برواية التفاصيل، وكانت هي تتورد ويزداد ألقها وتتلملم وتسوي من خصلات شَعرها بارتباك لذيذ... وطالبتني بأن أقصّ لها ذكريات مشابهة كانت قد عرضت لي عبر حياتي.

فاستعرضت لها ضباعاً كثيرة كنت قد زرتها خلسة في حياتي... هناك ضبعٌ صغير ومدلل كنت ألمح ذيله الصغير بين ساقَي مدرِّستي طويلة القامة جداً في المردسة الابتدائية، وهناك ضبع مرسوم بالأسمر الحنطاوي عند بنت الجيران في محلتنا المملوءة غباراً.

التي تمارس هواياتها المفضلة في تربية المستنقعات المائية وتصدير

الذبـاب نهـاراً والبعوض ليلاً، وهناك ضبع حقيقـي كان زميلاً لي في المدرسـة، كنت أروضـه في المراحيض وأعلّمه القـرص والعض وما شابه ذلك.

ثـم أصبحـت بـدوري ضبعاً لأكثر من هـاوٍ لهذا النـوع من الفن الوحشي الذي ساد الكثير في زماننا.... كانت الممرضة نسرين تصغي بلهفة وقد فتحت ساقيها شيئاً فشيئاً، وكنت أعرف أنها شاردة الذهن ومتوترة بعض الشيء.

حـين طلبت منـي الانصراف جـاء صوتها رخـواً ومسـالماً تماماً، وشـعرت كما لـو أنني شـخص حميم بالنسبة لها، ولم تكـن الحميمية تنقـص الكلب حسـانًا الذي جذبنـي من يدي مـا أن دخلت الردهة الخاصة.

وأخذ يشتم الممرضة نسرين ويجذبني بقوة نحو الحمامات الخلفية، وقـد أكّد لي مرات عديدة بأن ضبعه قد كبر وأنه على وشـك الاعتماد على نفسه... وأنه سيريني إياه هذه المرة ويجعلني أمتطيه بسهولة.

وكان من السـهولة حقاً أن أمتطي ضبعـاً رائعاً كبر بسرعة وأخذ يعتمد على نفسـه شيئاً فشيئاً. ولم تعد الكلفة واجبة فيما يخص أوقات وجودي مع الممرضة نسرين، ويكفي أن تسـألني سؤالاً حتى أجيب عنه بحرية الأطفال.

طبعـا ليـس هذا فحسـب، بل إننـي كنت أخترع لهـا حكايات لا أساس لها من الصحة.... حكايات حب مقموعة، حكايات لها طعم

ليلي دبق. وكانت هي تصغـي وتهتم بالتفاصيل ويشرق وجهها بنورٍ خاص.

نور ينشِّـط ملامحها ويزرع خدراً لذيـذاً في حركاتها، مثل صاعقة ألَّمت بي، كان طلب الممرضة نسرين وبصوتها الرخو الذي ألفته قائلة:

- أريد أن أرى ذلك الضبع.

وبلعت ريقي بصعوبة وقلت لها:

- ولكن.... ولكن ذلك الضبع في الحمامات الخلفية؟

عدَّلـت من وضـع ياقتهـا المفتوحة قليـلاً على صدرهـا الأبيض المكبوس جيداً وأجابت:

- ليكن.

قامـت، فنهضـت أنا الآخـر، وذهبنا صـوب الردهـة الداخلية، وكنـت أشـعر أن كارثـة لا بـدَّ منها..... سـوف تحـدث، لم أصادف حسانًا داخل الردهة، وكان ذلك هو ما أردت... وذهبت بها مسرعاً نحو الحمامات الخلفية وسط دهشة النزلاء وعدوانيتهم المتوقعة.

ولم يكـن سـهلاً بالطبـع مقاومـة رائحـة الحمامـات الخلفية ليس بالنسـبة لي طبعـاً، وإنما ذلك يعني نسرين التي أمسـكت أنفها المدلل بأصابعهـا النحيلـة، وضيقـت من عينيهـا لأخمن أنها شـعرت بدوار مفاجئ، خاصة حين أبصرت مستنقع البول الراكد.

وحـاذرت أن تطـأ بقدميهـا أكـوام النفايـات الظاهـرة بمحاذاة

الجدران القذرة... وحين وصلنا إلى حيث ترقد البراميل، وأشهر بوجهنا مدية صغيرة حادة سرعان ما أخذت تلمع أمامنا وقد لعقت الضوء القليل المارق من النافذة العلوية.

وشهقت نسرين ولطمت خديها، حينها صرخ بنا حسان قائلا:

- ماذا تريد أن تفعل بضبعي أيها الخائن؟

وانفلت المشهد من نظري حين مزق حسان وجه الممرضة نسرين وطعنني بباطن كفي وامتطى الضبع وأخذ يهرول داخل الحمامات الخلفية، بينما أطفأت النافذة عينها ولعق الذباب وجه نسرين التي أخذت تموء مثل قطة جريحة.

أهمية البقاء في جثة

أيـن هو حبلك الـسرّي الذي لطالما جربته على رقبتـك النحيفة وعنيـت به وفتلته فتـلات فتلات داخل زنزانتـك الانفرادية في تلك المصحة البعيدة والسـعيدة. أنت أيها الخاطئ الكبير، الفاشل المذعور في غرفة الجثث في درس التشريح.

في صبـاح أخـرس حيـث حرقـت الجامعـة وهربـت إلى هنا.... مصحوبـاً بالحـراس وعلى وجهـك جاروبة نسـائية وفي رقبتك حبل يتدلى... مفزوعاً تماماً ومتروكًا لتيهك المهروب... لم تنتفض قط.

لم تبال بسـخرية الجنون وحلمه السـعيد الجهد حتـى وأنت تُجلد عشرات المرات على سبورة الدرس وسوادها الأعمى فيّ على رصيفٍ ذابل من أرصفة بغداد... في الأسـواق الشعبية حين روجت روحك كبضاعة كاسدة في أسرّة زوجات الآخرين.

في مسـاء النقود وحلبة الشهوة، في الساعات الطوال داخل زحمة الباصات الإخطبوطية حينما كنت قناصاً في جيوب الآخرين ونصابا فاشلا في لعبة التجار ونهب الغنائم.

جلـدات أخـرى لا مثيـل لهـا وأنـت تعرض نفسـك أعـزلَ على سـائقي التاكـسي ولزوجة أجسـادهم المعروقة، وذلـك اللحم الذي يتنفـس فيـك ويتأمر، ثم أطاحـوا بك أرضاً وخلفـوك وراءهم ثملاً وساقطاً ورعديداً.

ماذا ستفعل بحبلك المفتول هذا؟.

تلـك البطانية القذرة المكتومـة إلى جوارك تصلح أن تكمل فكرة

الحبـل السري الـذي ما زال ناقصاً بـين يديك، أيها الطبيب الفاشـل الذي لم يتحمل فكرة كونه مجرد بقاء مؤقت داخل جثة.

أصبح الحبل جاهزاً الآن، وتلك العروة الحديدية التي تمد أصبعها إليك، نعم، هناك بمحاذاة النافذة العلوية، لا تقلق سوف يعلّق الحبل فيها. نعم. حاول مرة ثانية. أرأيت لقد علّق حبلك السرّي. نعم. ثبته جيداً.

هـذا يكفي ولن أدلك الآن عـلى رقبتك النحيفة، أليس كذلك.؟ ارتقِ الجدار ماسـكاً بالحبل.... اجذب الحبل سيغدو الجدار مجرد تلة عابرة... نعم هذا جيد.... لن يكون أمامك الآن سوى أن تقفز عالياً ونكون بذلك قد حصلنا على جثة جيدة في غرفة الدرس.

فرشـتها كل ليلة على سـطح المتر وتسـتقبل ذلـك الجني الصالح فيغمـى عليهـا من جديـد إلى أن نبَّهتها حمدية بائعة القيمر مشيرة إلى جمالها المتألق وإلى سمنتها الملحوظة، لا سيما من جهة البطن.

ولم تجبهـا رازقيـة بشيء، ومضـت تحمل ماعونها المملـوء بالقيمر وتعود فرحة إلى منزلها الذي لم يعد كئيباً، تهامس الناس عليها ولاكت سيرتها أفواه الجيران، ودخل الكلام مسامع الصغار والكبار.

وقيـل إنه ذات ليلة وحين انتهـت رازقية من آخر جرعة من قنينة مـاء الـورد المقـروء عليـه تمـددت عارية وحـضر الجنـي الصالح إلى مرقدها فانبرى له جني آخر شرير وخيّر فيه.

فجـرح الجني الصالح الذي فرّ هارباً وبقر بطن رازقية وهي ممدة

على فرشــتها وكانت تغط بنوم لذيذ، نومٍ مجلَّلٍ بالنعاس واللذة، وهو ذلك النوع من النوم الذي رفضت شرقية أن تستيقظ منه حتى يومنا هذا.

فهرست أيام الجنون والعسل
الحرب على مستشفى المجانين

فهرست حكايات من الشماعية

أيام الجنون والعسل

ما كان عليَّ أن أتأخر كل هذا الوقت لإعداد تقريري بخصوص تلك الأيام القاتمة التي قضيتها هناك في مستشفى (الرشاد) للأمراض النفسية والعقلية خلال أيام العدوان الأمريكي على بلدي وشعبي في العراق، ولولا أنني كنت اشمئز من عودة الذاكرة إلى رماد الجنون، وكنت أفضّل أن يكون الجنون صامتاً والعقل وحده، وهو الثرثار الكبير، يثرثر، إلا أنني ما أن عدت ذات يوم بعد مضي ما يقارب سبع سنوات إلى هناك حتى فتحت ذاكرتي الضوء ولحست مشاعري المكان..

كان العدم هو الذي خلع نعليه وأخذ يهرول في ردهات المستشفى في تلك الدار، التي تقبع في مساحة نائية في حدود بلدية- بغداد- هناك تلّة ترابية تقبع خلفها مقابر الأطفال ومقابر السيارات والأزبال ومعامل الطابوق.

خضير ميري

لوحة الغلاف للفنان، وسام مناحي

ISBN: 978-9922-628-51-6
9789922628516

SUMER
Printing, Publishing&distribution

سطور
دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد- شارع المتنبي- مدخل جديد حسن باشا
07700492567 - 07711002790
Email: bal_alame@yahoo.com